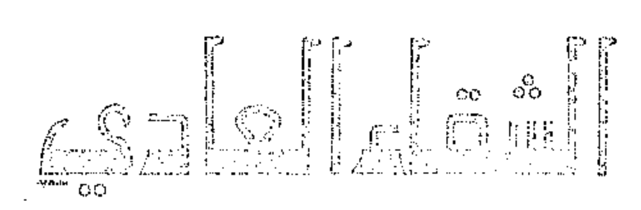
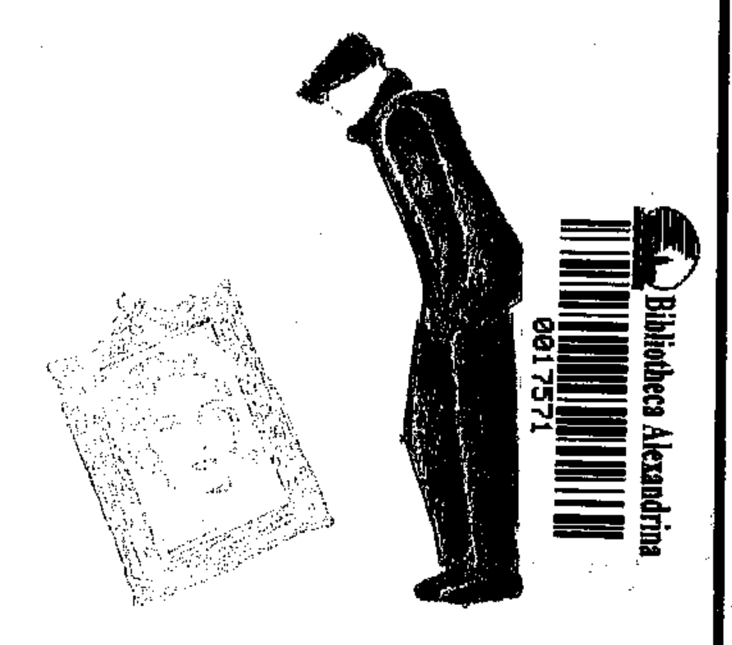
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



بيتر هاندكه

ترجمة :
بسّام حجّار





Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشقاء العادي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

روايات من العالم

بيتر هاندكه

الشقاء العادي

ترجمة :
بسّام حجّار



١٩٩١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلسلة روايات من العالم/٧

الكتاب الشقاء العادي

التأليف بيتر هاندكه

الترجمة بسام حجار

الناشر دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ص.ب. ١١/٣١٨١ ـ ت: ٠١/٣٠٥٥٢٠

التنضيد شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.

الطبعة الأولى ١٩٩١

تصميم الغلاف نجاح طاهر

جميع الحقوق محفوظة للناشر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديم

في ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧١، يبلغ الكاتب نبأ انتحار والدته وهي في الحادية والخمسين من العمر. وعندما يبدأ بالكتابة عن هذا الحدث، في مضيّ أسابيع قليلة، فإنما يفعل كما يقول في سطور الكتاب الأولى، وكأنّه «ينجز عملاً أدبياً». إلاّ أن قارىء هذه الصفحات لن يلبث أن يدرك أنّ النص ليس عملاً أدبياً عادياً. فهو لم ينطلق من «ذاته ومشاغله الخاصة» ولم يُفلح في الابتعاد عمّا يودّ قوله بالفعل. ففي «الشقاء العادي» ليس هناك ما هو «غير قابل للقول» كما تزعمُ القصّة أو الرواية. ومهما حاول هاندكه أن يُحاكي الحياة الحقّة بالكناية أو التوليف والتأليف، فهناك دائماً ما يُردّد في سرّه: إنها حكاية بسيطة. ولشدّة بساطتها تكاد عناصر السرد فيها تُبنى على أحوال الغائب والمجهول. فالحياة المقفرة التي يرسم النصّ معالمها ليس فيها أيّ حيّز «للتبدّل» أو «النمو»، بل لحمتها «الاستمرار» على الحال المقيمة، لذلك لا يكون الموت مأساوياً إلا بما هو فقدان لصورة ما، لإطار من الطيبة والامتثال وسوء الفهم. لم يكتب هاندكه هذا النصّ الحكاية إلاّ باقتفائه مواضع «الشغور» إذ تفارقها «الحياة» التي كانت حالّة فيها. الألم ومواضعه وكيف يبقى الألم الأشدّ في صورة الغياب. وكأنّ المرأة التي تركت أطيافاً لها في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأرجاء لم تُصبح حقيقة (كما تكـون الحياة حقيقة) إلاّ بعد أن غادرت بهدوءٍ وصمت. «الشقاء العادي» ليس مرثـاة، بل ربّما كان في تجربة بيتر هاندكـه المميّزة تمرين «الكتابـة الحقّة» حيث تفقد اللغـة كلَّ حيلة وتكون الأحاسيس مجرّدة، لا بل ربّما ينبغي القول: وتكون مجرّد أحاسيس.

ولـد بيتر هاندكه في غريفن (النمسا) عام ١٩٤٢ ويحيا منذ سنوات في باريس نال جائزة «بوخنـر»، أكبر الجوائز الأدبية الألمانية على مجموعـة أعماله الـروائية. له «البائع الجوّال»، و«قلق حـارس المرمى لحظة ضربة الجزاء» و«الإمرأة العسراء» و«الرسالـة القصيرة للوداع الطويـل» و«ساعة اليقين» و«صينيّ الألم» و«حكـاية طفل» و«العـود على بدء».

المترجم



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليس شاغله أنّه وُلِد، بل شاغله أنّه يموت.

بوب ديلان

كان الغَسقُ يفجأ النواحي. بعدَ السابعة مساءً بقليل، والشهر كان تشرين الأول.

باتريسيا هايسميث
(فدية كلب).



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في زاوية «الحوادث المتفرّقة» لعدد يوم الأحد من صحيفة «فولكس زايتونغ» في كاريتشيا نشر هذا الخبر: «ربّة منزل من أ. (مقاطعة ج.)، ٥١ عاماً، تنتحر ليلة الجمعة/ السبت بتناولها كميّة كبيرة من الحبوب المنوِّمة».

ها قد مرّت سبعة أسابيع على موت أمّي، وأودّ أن أنصرف إلى العمل قبل أن يتحوّل من جديد إلحاح الكتابة عنها، وكان بالغ القوّة لحظة دفنها، إلى مثل ذلك الصمت الذاهل الذي انتابني يوم بلغني نبأ انتحارها. أن أنصرف إلى العمل: ذلك أن الحاجة لكتابة شيء ما عن أمّي، وإن انتابتني أحياناً «بإلحاح شديد»، إلا أنها في الوقت نفسه على قدر من الغموض بحيث يلزمني جهد إرادي كبير لكي لا تكرّر آلتي الكاتبة، انسجاماً مع حركتي الأولى، نفس المقطع اللفظي على الورقة. مثل هذا العلاج بالحركة، وحده، لن يجعلني أفلح في شيء، ولن يجعلني إلاّ أكثر حياداً وعجزاً. وكذلك السفر - ومن ثمّ أثناء الرحلة، في الطريق، قد لا تثقل أحلام يقظتي وتسكّعي اللاإرادي على أعصابي بهذا القدر.

منذ أسابيع وأنا عرضة لتوتّر الأعصاب أكثر مما كنتُ في السابق، فوضى العيش والبرد والهدوء، كلّها تجعلني أكاد لا أتحمّل كلمة، وأنحني لألتقط أقلّ نديفة صوف وأدقّ فتة خبز. ويدهشني أحياناً أنّ ما أمسكه بيدي لم يقع مني منذ وقت طويل لشدّة ما أفقد فجأة إحساسي بكلّ شيء حين أفكرّ في هذا الانتحار. وبرغم كل شيء أنتظر هذه اللحظات لأنّ البلادة تزول ويروقُ رأسي. إنّه الهلع إذ يجعلني في حالة أفضل: لا متاعبَ، أخيراً، جَسَدٌ مُتراخٍ، وما من فِراقٍ مؤلم، بل انقضاءٌ هينٌ للوقت.

الأسوأ في مثل هذه اللحظة هو تعاطف شخص آخر، بنظرة أو بكلمة. فلا تلبث أن تحيد بأنظارك أو أن تقاطع كلام الآخر. لأنك تكون في حاجة لأن تشعر بأنّ ما تعانيه غير مفهوم ولا يمكن نقله إلى آخر: إنّه المظهر الوحيد الذي يبدو الهلعُ من خلاله متماسكاً وحقيقياً. وعند أوّل سؤال ينتابك البَرَمُ من جديد، ومن جديد تفقد مبرّر وجودك. ومع ذلك يحدث لي أن أتحدّث مع الناس عن انتحار أمّي، هكذا ببلاهة، وأغضب إذا ما قالوا شيئاً بهذا الشأن. فكلّ ما أبتغيه عندئذ هو أن أُعطى فرصة للتلهّي وأوّل مبرر للشجار.

في آخر أفلام جيمس بوند، حين يُسأل عمّا إذا كان الخصم الذي رمي به من أعلى صحن الدرج قد «مات»، ويجيب «أرجو ذلك!»، لم أستطع، مثلاً، أن أتمالك نفسي عن الاسترسال في الضحك. فالدعابات حول المرض أو الموت لا تزعجني إطلاقاً، بل أشعر بارتياح حين أسمعها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن لحظات الـرعب ليست دائماً إلاّ قصيرة الأجـل؛ مشاعـر لاواقعية أكثر مما هي لحظات رعب، إذ كل شيء يتشكّل من جديد سحابةَ هنيهات قليلة، وإذا وجدت نفسك برفقة شخص ما فلن تلبث أن تبذل جهداً لكي تبدي للآخر انتباهاً خاصاً، كما لو أنّك أسأت إليه على نحو ما.

منذ أن شرعت في الكتابة وهذه الحالات تبدو لي بعيدة ومنقضية، وقد يكون ذلك لأنني أحاول أن أصفها وصفاً دقيقاً. فمن خلال وصفها أكونُ قد بدأت أتذكرها كما قد أتذكّر مرحلة سابقة من حياتي، ويتطلّب مني تذكّرها وصياغتها قدراً من التركيز بحيث أصبحت أحلام اليقظة القصيرة التي انتابتني في الأسابيع الأخيرة، وكأنّها غريبة عني. ذلك أنني كنت أعاني من تلك «الحالات» أحياناً: التصوّرات اليوميّة التي ليست، في آخر الأمر، سوى التكرار المهذار للتصوّرات الأصلية القديمة والتي تعود إلى سنين خلت إلى عشرات من السنين، تنحلُّ فجأة فيتضعضع الوعي أمام الفراغ الكبير الذي حلّ به فجاءة.

انتهى الأمر، الآن. فلا أكابد مثل هذه الحالات. عندما أكتب، أكتب بالضرورة عن ذات يوم، عن شيء انقضى، على الأقل لحظة الكتابة. أنا أقوم بعمل أدبي، كالعادة، برّاني ومجسّد بآلة ذكريات وصياغات. وأكتب قصّة أمي، أولاً، لاعتقادي أنني أعرف عنها وعن ظروف موتها أكثر مما يعرف أوّل القادمين من الصحفيين الغرباء. وقد يكون في استطاعته دون جهد أن يفك رموز حالة الانتحار المثيرة للاهتمام هذه عبر تأويل الأحلام وفق المعطيات الدينية والسيكولوجية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والاجتماعية، وثانياً من أجلي أنا نفسي، لأنني أحيا من جديد حين أنهمك في شيء ما، وأخيراً لأنني أودّ، تماماً كـالصحفي الغريب، أن أجعل من هذا الموت الارادي عبرةً، ولكن بطريقة مختلفة.

كل هذه الدوافع توازي دوافع أخرى مثلها، طبعاً، ودوافع غيرها ليست أقوى منها قد تستبدلها. وهكذا كان ثمة هنيهات عابرة من الصمت التام وضرورة تدوينها ـ مبررات الكتابة نفسها منذ أن كانت الكتابة.

حين وصلتُ إلى الدفن، وجدتُ في حافظة نقود أمّي إشعاراً بإيداع رسالة يحمل الرقم ٤٣٢. فمساء الجمعة، قبل أن تعود إلى المنزل وتبتلع الحبوب المنوِّمة كانت أرسلت إليّ من فرانكفورت نسخةً من وصيّتها بواسطة البريد المضمون (ولكن لماذا بالبريد العاجل أيضاً؟). ويوم الاثنين كنتُ في مكتب البريد نفسه لمكالمة هاتفية. كان ذلك بعد يومين ونصف اليوم من وفاتها ورأيت لفّة بطاقات البريد المضمون الصفراء أمام الموظف: كانت أرسلت تسع رسائل بعدها بهذه الطريقة، إذ كان الرقم التالي ٤٤٢ وكان الشبه كبيراً بين هذه الصورة والرقم الماثل في ذهني بحيث أنّ أفكاري غامت فجأة وانتابني الشعور العابر بأنّ كل شيء مزيّف. وأعادني إلى صوابي ما أحسست به من رغبة في أن أروي كل ذلك على مسامع أحد ما. لقد كان نهاراً جميلاً فعلاً. ثلج. كنا تناولنا حساء لحم الكبد المفرَّم. «هكذا كانت البداية...». لو بدأت القصّة بهذه الطريقة لبدا كل شيء مُختلفاً، ولن يكون القارىء أو السامع عندها، مجبراً على التعاطف شخصياً، إذ لا يرى أمامه سوى قصّة من نسج الخيال.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت البداية إذن منذ أكثر من خمسين عاماً بقليل بولادة أمّي في تلك البلدة حيث ماتت. وكان كلّ ما من شأنه أن يوفر دخلاً ما مُلكاً للكنيسة أو للنبلاء ملاّكي الأراضي. وكان جزءٌ منها فقط يؤجّر للأهلين الذين كانوا في غالبيتهم العظمى من أصحاب الحرف والمزارعين الصغار. وكان الإملاق العام سائداً في ذلك الوقت بحيث أنّ الملكية الصغيرة كانت هي أيضاً نادرة الوجود. ويمكن القول إنّ الظروف السائدة كانت أشبه بتلك التي سادت عام ١٨٤٨، لو أن نظام القنـانة لم يكن مُلْغى. كان جدّي ـ وهو لا يـزال حيّاً يُرزق في السابعة والثمانين من عمره ـ نجّاراً وكان علاوة على ذلك يزرع وزوجته بعض الحقول والمروج التي يستثمرها مقابل أكارة سنوية. إنه من أصل سلوفاني من أهل البلد، كمعظم المزارعين الصغار في ذلك الوقت الذين ما كانوا يملكون المال الكافي للزواج ولا يملكون ولو جُحراً لإيواء عائلة. أمّ جدي كانت، من جهتها، إبنة مزارع ميسور جداً، وكان والد جدي بمثابة خادم عند هذا المزارع الذي لم يكن يرى فيه سوى «مُنجِب». والجدير بالذكر أنّ جدّة جدّتي استطاعت أن تمتلك مزرعةً صغيرة بفضل نسبها.

بعد أجيال من الأقنان المُعدمين، وذوي شهادات الميلاد غير الكاملة، الذين يولدون ويموتون في أماكن غريبة عنهم ولا يخلّفون إرثاً لأنهم كانوا يوارون مع ملكيّتهم الوحيدة، وهي ثوب العيد، كان جدّي إذن أوّل من ترعرع في بيئة يستطيع فيها حقّاً أن يشعر بأنّه في دياره دون أن يبذل مقابل ذلك عملاً يومياً.

كان في استطاعة أيّ كان، منذ بعض الوقت، أن يقرأ في الزاوية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاقتصادية لإحدى الصحف في معرض الدفاع عن المبادىء الاقتصادية للعالم الغربي، أنّ الملكية هي «الحريّة مجسّدة» وربما كان الأمر صحيحاً في نظر جدّي، أوّل من قُدِّر له، من بين أفراد العائلة، امتلاك عقار على الأقلّ في وَسَط أجيال من الرجال المحرومين من الإمكانيات وتالياً من السلطة: فقد كان وعي امتلاك شيء ما يمثّل قدرةً على التحرّر بحيث أدّى إلى تكوين إرادة، بعد أجيال مسلوبة الارادة: المزيد من الحريّة، في الظروف التي كان يحياها جدّي، تعني: توسيع المُلكيّة.

إلّا أنّ المُلكيّة الأصليّة كانت من الضآلة بحيث أنّها كانت تتطلّب كلّ ما يتوافر من طاقة وجهد. ولم يكن أمام الملّاكين الطموحين سوى وسيلة واحدة: الادّخار.

إذن، ادّخر جدّي وخسر كلّ مدّخراته خلال أزمة التضخم في العشرينيات. وعاود الادّخار، ولكنّه إذا كان يُراكم ما يقتصده لهذا الغرض، فقد كان، قبل أيّ شيء آخر، يكبت حاجاته الخاصة ويتظاهر على مرأى من أولاده بذلك الغياب الخرافي للاحتياجات. أمّا زوجته، كونها امرأة، فلم تكن تحلمُ، منذ ولادتها، بغير ذلك.

وواصل ادّخاره بانتظار أن يحين الوقت لترتيب أوضاع أولاده حين يتزوجون أو يزاولون مهنة. ولم يلبث أن كرّس كل مدّخراته لتعليمهم، وكان مثل هذا الأمر يبدو مخالفاً للطبيعة وخاصة بالنسبة للفتيات. أما بالنسبة للأبناء أنفسهم فإنّ كوابيس المُعْدَمين الذين يشعرون بالغُرْبَةِ أينما حلّوا، أصبحت فعلاً طبيعة ثانية، ولذلك فإنّ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحدهم، وكان حصل على منحة للدراسة الثانوية بمحض الصُدْفة لا باختياره، لم يُطِق العيش في مثل هذا الوسط لأكثر من أيام قليلة، وعاد أدراجه ليلاً وسيراً على قدميه مسافة الأربعين كيلومتراً التي تفصل المدينة عن منزل ذويه وهناك ـ كان يوم سبت، اليوم المعتاد لتنظيف المنزل وفنائه ـ شرع يكنس أرض الفناء دون أن ينبس بكلمة واحدة. كان صوت المكنسة في الصباح الباكر يُعبّر عمّا يعتمل في داخله. ثمّ أصبح نجّاراً بارعاً في حرفته وسعيداً بما آلت إليه حاله، فيما يبدو.

لقد قُتِلَ هو وشقيقه الأكبر في بدايات الحرب العالمية الثانية. وكان الجدّ لا يزال يدّخر وخسر من جديد كل مدّخراته في موجة البطالة في الثلاثينيات. كان يدّخر، يعني: أنّه لم يكن يشرب ولم يكن يدخّن. ويُقامر في مناسبات قليلة جداً. وكان يسمح لنفسه بلعبة ورق واحدة يوم الأحد. ولكنّ المال الذي كان يربحه عندئذ ـ وكان لعبه محسوباً بحيث كان الرابح دائماً ـ يُضاف إلى مدّخراته وبالكاد يتخلّى عن دراهم قليلة لأولاده. وبعد الحرب عاود الادّخار، وبات صاحب إيراد، ولم يزل.

الابن المتبقي على قيد الحياة، وهو معلّم نجّار بوسعه استخدام عشرين عاملاً، لم يعد في حاجة للادّخار: بات يوظّف أمواله، ما يتيح له أن يشرب ويُقامر، بل أصبح ذلك أفضل ما يتلاءم ووضعه. وهكذا، على العكس من والده، الصامت طول عمره، المنعزل عن محيطه، بات الابن يمتلك، بهذه الطريقة، نوعاً من القدرة على التخاطب وإن كان لا يستخدمها بوصفه عضواً في المجلس البلدي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمثل قسماً منسيّاً وضئيلاً من العالم بأحلام المستقبل الباهر انسجاماً مع ماضيه الباهر.

أن يُولَد المرءُ امرأةً في مثل هذه الظروف فهذا يعني، مباشرة، الموت. ومع ذلك يُمكن القول أنّه أمرٌ مطمئن: إذ لا خوف من المستقبل بأية حال. وكانت قارئات الطالع في أيام احتفال العيد لا يقرأن المستقبل إلاّ في أكفّ الصبيان؛ وحين يُقرأ الطالع في كفّ الفتيات لا يكون المستقبل سوى خدعة. مُحال، إذ لا يتبدّل المكتوب: قليل من الغُنج، ضحكة مكتومة، بُرهة ارتباك قصيرة، ولأوّل مرّة ملمح الرضوخ والسهو الذي به يتمّ الاعتناء بالمنزل الزوجي، ثمّ أوّل المولودين، ثمّ التريث قليلاً، بعد إتمام المشاغل البيتيّة، في المطبخ، ثمّ كلام لا يُسمع من المرّة الأولى، وشيئاً فشيئاً عدم الاصغاء للذات، والتحدُّث إلى الذات، ثمّ وَهَن الساقين، مرض الدوالي، أكثر من غمغمة أثناء النوم، سرطان المبيض، والموت الذي يأتي ليتمّم مقادير القدرة الإلهية. ألم تكن مراحل اللعبة التي كانت فتيات المنطقة الصغيرات يحرصن على أدائها باستمرار: التعب/ الإنهاك/ المرض/ المرض الشديد/ الموت؟

كانت أمّي الولد ما قبل الأخير من بين خمسة أولاد. وبرهنت على مستوى من الذكاء في المدرسة وكان المدرّسون يمنحونها أفضل العلامات ويمتدحون، بصفة خاصة، خطّها الجميل، ثمّ انتهت سنوات الدراسة. إذ لم يكن التعلّم سوى لعبة أطفال، فبعد إتمام مرحلة التعليم الالزامي، تأتي سن البلوغ، ويُصبح التعلّم بلا فائدة. وكانت الفتيات، في منازلهن، يعتدنَ على حياتهن المنزلية المقبلة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما من غمّ سوى الغمّ الباطني، في العتمة أثناء العاصفة. فقط هذا التراوح بين الدفء والبرد، بين الرطوبة والجفاف، بين الرخاء والضيق.

وكان الوقت يمضي بين الأعياد الدينية، والصفحات التي تنالها لهفوة في حفلةٍ راقصة، والإحساس بالحسد تجاه الأشقّاء، ومتعة الانشاد مع الجوقة في الكنيسة. وكلّ ما يحدث في العالم سوى ذلك يظلّ غامضاً. ولم يكن يُسمح سوى بقراءة النشرة الأسقفية كلّ يوم أحد ومنها فقط الرواية العاطفية المسلسلة.

الآحاد: لحم البقر المطبوخ بصَلصة الخردل البرّي، ودقّ الورق، والنساء القابعات ها هنا، مطرقات، صورة للعائلة بقرب أوّل جهاز راديو.

كانت أمّي ذات طباع مفرطة الحيويّة، وكانت، أمام عدسة المصوّر، تضع يديها على وركيها أو تحيط بذراعيها كتفي شقيقها الأصغر. وكانت دائماً تضحك وكأنها لا تستطيع فعلاً أن تتمالك نفسها من الضحك.

مطر ـ شمس، خارج ـ داخل. إذ أن المشاعر الأنثوية ترتبط ارتباطاً شديداً بالطقس، لأنّ «الخارج» ليس تقريباً سوى الفناء في معظم الأحيان، والداخل هو فقط البيت من دون غرفة خاصة بهنّ.

المناخ في هذه المنطقة يتبدل كثيراً: شتاء بارد وصيف قائظ، ولكنْ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا تلبث أن تصيبك الرعشة ما إن تميل الشمس للمغيب، أو ما إن تظلّلك وريقات الأغصان. مطر غزير. ومنذ بدايات أيلول يهبط ضباب رطب على مدار النهار خلف النوافذ الصغيرة جدّاً، حتّى أنّهم لا يبنون اليوم أكبر منها: قطرات ماء على حبال الغسيل، ضفادع تتقافز عبر الدرب أمامك في الظلام، ذباب، حشرات، فراشات ليليّة في عزّ النهار، ديدان وبنات وردان تحت حطبة في مخزن الحطب: لا سبيل إلاّ أن تحيا مع كل هذه الأشياء، إذْ لم يكن هناك أيّ خيار آخر. رغبات، غالباً ما تنتابك وسعادة مُبهمة، ولا رغبة واحدة تقريباً، وقرصة شقاء.

يستحيل أن تقارن بطريقة أخرى من العيش: ما من تطلبٍ أيضاً؟

بدأ كل ذلك برغبة تملّكت أمي فجأةً: أرادت أن تتعلّم. لأنها فيما مضى، حين كانت لا تزال فتاة صغيرة على مقاعد الدراسة أحسّت بشَطرٍ من ذاتها. كما يُقال: «أحسُّ بنفسي». لأوّل مرّة كانت لها رغبة وعبّرت عن هذه الرغبة وأصبحت في النهاية هاجسها. كانت أمّي تروي بأنّها «سألت» جدّها الإذنَ بتعلّم شيء ما. ولكن، عَبَثاً: إشارة من اليد كانت كافية لكتم الموضوع إلى الأبد. كان الرفض بالإشارة، لأنّ الفكرة كانت غير معقولة.

ومع ذلك فإنّ الأهلين كانوا يُبدون احتراماً تقليديّاً للأمر الواقع: حَمْل، الحرب، الدولة، العادات السارية والموت. فعندما غادرت أمّي البيت ببساطة وهي لا تزال في الخامسة أو السادسة عشرة لكي تتعلّم الطبخ في فندقٍ على البحيرة، أذِنَ لها جدّي بذلك لأنها، على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيّة حال، كانت قد غادرت. بالإضافة إلى أنّها لن تجد، في شؤون الطبخ، الكثير لتتعلمه.

لكن أيّ إمكانية أخرى كانت قد أصبحت مستحيلة: غسل الأواني، الغرف، المساعدة في المخابز، الطبخ. «الأكل، عادة لن تزول». وفي الصور، وجه مُتورّد، خدّان ممتلئان، ذراعاها من الجانبين على أكتاف صديقاتٍ لها وَجِلاتٍ ومُطرِقات استدرجتهنّ للحاق بها. صفاء سريرة الواثق من نفسه: «لم يعد ممكناً أن يحدث لي شيء!». غبطة الرفقة، الصريحة والحيويّة.

الحياة في المدينة: أثواب قصيرة («ذات الأربعة قروش»)، أحذية ذات الكعوب العالية، شعر متموّج ومصفّف وأقراط في الاذنين، لذة الحياة الهانئة! وصيفة في زيّها الأسود، معجبون كُثُر ومحظيّون قلائل! تخرج، ترقص، تتلهّى، تكون فَرِحة: طريقة لإلهاء الخوف الجنسي؛ «ولم يعجبني أحد». العمل، التسالي. القلب المنقبض، القلب المرح، كان صوت هتلر في الراديو رائعاً. الحنين إلى الموطن الذي يُعانيه أولئك الذين لا يمتلكون ثمن ما يرضيهم: العودة إلى فندق البحيرة، «حيث بتُّ أتولّى شؤون المحاسبة»، إفادات ممتدحة: «الآنسة.... أظهرت كفاءة وحيويّة... إنّ تفانيها وطبيعتها الصادقة والمرحة يجعلانا نأسف... وهي تغادر مؤسستنا بناءً على طلبها...». نزهات في القارب، سهرات من الرقص المتواصل، من غير تعب.

في ١٠ نيسان ١٩٣٨: النَعَمُ الألمانية! «في الساعة الرابعة والدقيقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخامسة عشرة ظهر الفوهرر بعد عبور مُظفَّر في شوارع كلاجنفورت على وقع موسيقى بادنفايلر العسكرية. وكان حماس الجماهير يفوق الوصف. آلاف الأعلام ذات الصلبان المعقوفة ترفرف فوق المنتجعات الشتوية والمنازل الفخمة وتنعكس على صفحة مياه الفورترزي التي أزيل الجليد عنها. وكانت طائرات الرايخ وطائراتنا تتنافس في شقِّ عباب السحاب».

كانت الصحف تُضمّن أعدادها شاراتٍ انتخابية وأعلاماً من حرير أو ورق. وكانت فرق كرة القدم تغادر في نهاية المباريات بالصيحة النظاميّة: «يحيا النصر!»(*). وما عادت السيارات تحمل الحرف (A) بل الحرف (D). وفي الراديو: الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة يذاع أمر اليوم، وفي السادسة والدقيقة الخامسة والثلاثين حكمة اليوم، وفي السادسة والدقيقة الخمسين تمارين رياضية، وفي الثامنة موسيقى ريتشارد فاغنر، وحتّى منتصف الليل منوعات من الموسيقى الراقصة تبثها محطة الارسال الألمانية في كونيغسبرغ.

«ينبغي أن تكون ورقة اقتراعك في العاشر من نيسان على النحو التالي: سوف تضع علامة صليب داخل الدائرة الكبيرة فوق كلمة نعم».

وكان اللصوص الذين يُطلق سراحهم من السجن يعترفون، هم أنفسهم، بالسرقة من جديد ويدّعون أنهم ابتاعوا الأشياء المسروقة من

(*) بالألمانية في النصّ (Siegheil!).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مخازن ما عادت موجودة لأن أصحابها من اليهود.

تظاهرات مصحوبة بتطواف بالمشاعل وساعات عطلة. وجُهِّزت الأبنية بعلاماتٍ فارقة جديدة وبات لها واجهات تلفت الأنظار. كما تملأ الزينةُ الغابات وقمم الجبال. إذ باتت الأحداث التاريخيّة تكتسب شكل الاحتفال الطبيعي في عيون أهل الريف.

«كنا نشعر بقدر كبير من الإثارة»، كانت أمي تقول. كنّا نخوض لأول مرة تجربة العيش كجماعة. وحتّى ضجر أيام الاسبوع العاديّة كان يكتسب جوَّ الاحتفال، «وحتى ساعات متأخرة من الليل». وكأنَّ كلّ ما كان، حتّى ذلك الحين، مبهماً وغريباً بات يطمئن إلى تناسقٍ وانسجام: كان كلُّ شيء ينتظم بصلةٍ ما، حتّى العمل الآلي الرتيب يُصبح له معنى، معنى الاحتفال. حتّى الحركات التي نؤدّيها تتناغمُ، آنذاك، مع إيقاع رياضي لأننا كنّا نتخيَّل أنَّ آخرين، لا يُحصى عددهم، يؤدّون الحركة نفسها في الوقت ذاته، وكان هذا يُضفي على العيش شكلاً من المتانة يشعر المرء معه بأنه يستند إلى ذراعٍ قويّة وصلبة، ولكنها طليقة في آن.

أصبح الإيقاع جزءاً من الوجود: بات طقساً شعائرياً.

«المصلحة العامة تغلُب المصلحة الفرديّة، وحسّ العام يغلب حسَّ الخاص». وفي أي مكان كان واحدنا يَحسب أنّه في موطنه. عدد كبير من العناوين على مقلب الصور، ولأوّل مرّة يقتني المرء مفكّرة جيب (أو تُقدّم إليه كهدية؟): وفجأة يصبح عدد كبير من الناس أصدقاء لك، أمّا الأحداث التي تمرّ بك فكانت من الكثرة بحيث لا تستطيع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلاّ أن تنسى بعضها. لطالما أرادت أن تكون فخورةً بشيء ما وبما أنّ كل ما يحدث كان على درجة ما من الأهمية، فقد أصبحت فخورة بالفعل، ليس لشيء محدّد، بل فخورة بصورة عامة، كأنه لسان حال، والتعبير عن لذّة في العيش نالتها أخيراً. وما كانت لترضى بالتخلّي عن ذلك الفَخْر المبهم.

كانت لا تزال غير مبالية بالسياسة: فما كان يجري مُجسّداً من حولها يختلفُ جدّاً في نظرها ـ حفلة تنكّرية، وعروض اسبوعية للـ ي. أف. آ. («تظاهرات فنيّة حديثة ـ أسبوعان موسيقيان»)، يوم أحد وثني. ولكنّ السياسة كانت أمراً غير محسوس، مجرّداً، فهي لم تكن لا حفلة تنكرية راقصة ولا نزعة جوّالة ولا أوركسترا فولكلورية، فالسياسة لا يمكن «استعراضها» بأية حال. مسيرات في كلّ مناسبة و«السياسة» إذن؟ ـ لم تكن الكلمة مفهوماً لأنّها، شأن كلّ المفاهيم السياسية، سَبَق ولُقّنت في كل الكتب المدرسية، دون أن يكون لها أي صلة بشيءٍ ملموس، بشيء واقعي، فقط في صيغة شعار أو، إذا كانت تُلقّن من خلال صور، في صيغة كنايات لا صلة لها بالبشر: الاضطهاد، كان سلسلة فولاذ أو كعب جزمة. الحرية، قمة جبل. النظام الاقتصادي، مداخن مصانع تشيع الاطمئنان وغليون أيّام الآحاد. النظام الاجتماعي، سلّمٌ ذو مراتب: أمبراطور ـ ملك ـ نبيل / برجوازي ـ فلاّح ـ نسّاج / نجّار ـ متسوّل ـ حفّار قبور: ولم تكن هذه اللعبة لتتواصل في أعمق مغزاها إلاّ في أوساط أُسَر الفلاّحين والنجارين والنسّاجين العديدة.

تلك المرحلة أعانت أمّي على الخروج من شرنقة ذاتها وعلى أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصبح سيّدة نفسها. واكتسبت رباطة جأش وفقدت ما ترسّب لديها من الخوف من أن تكون لها صلاتٌ بالآخرين: قبّعة صغيرة مالت إلى جهة من رأسها لأنَّ فتىً أسند رأسه إلى رأسها فيما هي لا تتمالك من الضحك أمام آلة التصوير، سعيدة بما تفعل: (تلك الخرافة التي تجعل الصور قادرةً حقاً على «قول» مثلَ هذه الأشياء: ولكنّها إذ توضع جميعها في قوالبَ، ألا تصبح، برغم كل شيء، وبهذا القدر أو ذاك، خيالية، حتى لو كانت تصوّر حدثاً واقعياً؟ بقدر أقلّ إذا ما حاولنا أن نصف الحدث؛ وبقدر أكبر إذا ما سعينا إلى العثور على الصياغات الأكثر دقّةً؟. ولعلّه إذا كان التخريفُ هو الأقوى تُصبح القصّة على قدر أكبر من الأهمية في عيون شخص آخر، لأنّ الآخر يميلُ إلى التماهي بصياغات خياليّة أكثر من ميله إلى وقائع سردية حقيقية. - ومن هنا الحاجة إلى الشعر؟ «ساعياً إلى امتلاك أنفاسه على ضفة نهر»، عبارة لطوماس برنهارت).

الحرب، سلسلة من بلاغات الانتصار مصحوبة بموسيقى مظفّرة تنبثق من إطارات القماش الدائرية لمكبّرات الصوت فيما تقعي أجهزة الراديو اللامعة، يكتنفها السرّ، في «زوايا الربّ»، وكانت تعزّز ذلك الإحساس بالذات «عبر مضاعفة الاحساس بالريبة إزاء كل الظروف» (كلاوسفيتز) وعبر جعلها ما كان في السابق حقيقة يومية مجرّد مصادفة أهوائية. ولم يمثل هذا في نظر أمّي مشهد القلق الذي ساد الطفولة والذي كان حاسماً، على نحو ما، في تحديد حساسية المستقبل، كما كان الأمر بالنسبة لي، بل مثّل، قبل أي شيء، تجربة عالم خرافي لم يُشهدَ منه، حتى ذلك الحين، سوى الإرهاصات. معنى جديد للفوارق، لما كان من قبل في سلام، وخاصة للأفراد الآخرين الذين لم يلعبوا في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السابق سوى أدوار فارغة من أيّ محتوىً، الرفاق، فرسان الأحلام، الزملاء. ولأوّل مرة أيضاً معنى الأسرة: «أخي العزيز، أبحث على الخارطة عن المكان الذي قد تكون موجوداً فيه. . . أختك».

وكذلك الحبّ الأوّل: ألماني من الحزب، وموظّف في الحياة المدنية في إحدى مؤسّسات الادّخار، ومن مزاياه أنّه كانَ مفوّض الصرف - بالإضافة إلى بعض السُمنة. كان متزوجاً وكانت تحبّه، أعظم ما يكون الحبّ، وتُصغي إلى كل ما كان يقوله. عرّفته على والديها ورافقته في نزهاتٍ في الجوار، وكانت له خير رفقة لوحدته كجندي. «كان شديد الاهتمام بي، ولم أكن أخاف منه كما أخاف من الرجال الآخرين».

كان يُقرّر، وكانت توافق على كل شيء. قدّم لها هدية ذات يوم: عطر. وأعارها أيضاً جهاز راديو لتضعه في غرفتها، قبل أن يستعيده فيما بعد. وكان، «في ذلك الوقت» لا زال يقرأ، كانا يقرآن معاً كتاباً بعنوان «قُرب النار». وخلال نزهة في الجبل، وفيما كانا يتراكضان في درب منخفض قليلاً أفلتت أمّي ريحاً، فلامها أبي على ذلك. وحين ابتعدا قليلاً ضرط بدوره، فتنحنح. كانت تنطوي على ذاتها وهي تخبرني بذلك وتضحك بمكر ولكن أيضاً بتأنيب ضمير لأنها كانت تُسيء القول في حقّ حبّها الوحيد. كانت تضحك في سرّها لمجرّد أن يخطر لها بأنها أحبّت ذات يوم ولأنّها أحبّت ذلك الرجل بالذات. كان أقصر قامة منها، وأكبر سناً بكثير، تقريباً أصلع وكانت تمشي إلى جانبه وهي تنتعلُ كعوبَ زحف، وتبدّل من خطواتها دائماً لتتلاءم مع خطواته، متشبّثةً بذراع معاندة تتفلّت منها باستمرار، ثنائي غير منسجم ومثير للضحك - وبرغم ذلك ظلّت بعد ذلك عشرين عاماً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهي تشكو من فقدانها لشعور مشابه لما أحسَّت به ازاء كاتب مكتب الادخار هذا بسبب بعض المجاملات المغرضة. ولكنَّ الآخر لم يأت أبداً: فقد أهَّلتها ظروف الحياة لحبّ لا يحيد عن شيء،لا مثيل له، لا بديلَ له.

بعد أن اجتزت الامتحانات النهائية، رأيت والدي لأوّل مرّة: قبل موعدنا بقليل صادفته في الشارع وقد ألصق قطعة من الورق على أنفه الذي ألهبته الشمس وانتعل صندلين، وأمسك برسن كلب رعاة اسكتلندي. فيما بعد التقى بعشيقته السابقة في أحد مقاهي البلدة الصغيرة حيث وُلدت، وكانت والدتي شديدة التوتّر، وأبي شديد الحيرة. وكنتُ أقفُ بعيداً بقرب جوكي ـ بوكس وأختار أغنية «الشيطان متنكّراً» لألفيس برسلي. كان الزوج على علمٍ بكلِ شيء ولكي يُبدي ذلك لم يجد سوى أن يُرسل أصغر أولاده لشراء مثلّجات من مقهى آخر، ثمَّ يعود ويقف قرب أمّه والغريب، ويسأل أمّه بين الحين والآخر، بنفس العبارات دائماً، متى يحين وقت عودتها إلى المنزل. كان أبي يُلصقُ زجاجات واقية للشمس على نظّارتيه ويخاطب كلبَه من حين لآخر ويقول «إنه ربّما ينبغي أن يدفع الحساب». ويقـول، حين يرى أمي تهمّ بفتح حافظة نقودها في محفظتها: «لا، لا، اعتبريها دعوةً مني». وحيث قضينا فترة العطلة، نحن الاثنين، اشتركنا في كتابة بعض السطور على بطاقة بريديّة وأرسلناها إلى أمّي. وحيثما مكثنا، كان يردّد بأنني ابنه حرصاً منه على ألا يُنظر إلينا كلوطيين («المادة ١٧٥»). لقد احبطته الحياة وبات يشعر أكثر فأكثر بالوحدة. «أحبّ الحيوانات مُذ عرفت البشر» كان يقول، ولكنّه، بالطبع، لم يكن صادقاً في قوله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبل أن تلدني أمّي، تزوجت من صفّ ضابط في جيش الفرماخت، كان يُجلّها منذ وقت طويل ولا يبالي بالطفل الذي ستلده له من صلب رجل آخر. «إنها هي»، هذا ما خطر له حين رآها وراهن رفاقه على أنه سيحظى بها أو، بالأحرى، على أنها ستقبل به. كانت في أعماقها، غير معجبة به، ولكنّها جوبهت بحسٍّ الواجب (أن تجد أباً لطفلها): ولأوّل مرّة رضخت للإحراج وفقدت شيئاً قليلاً من ضحكتها. هذا وقد أثّر فيها بالغ الأثر أن ترى أمامها من صمّم بعناد على أن ينالها، هي بالذات.

«كنت أحسبُ أنّه، بأية حال، سيُقتل في الحرب، قالت. ولكنني فجأة شعرتُ، برغم ذلك، بالخوف عليه».

هذا بالإضافة إلى أنها بزواجها سيكون لها الحق بالقرض الخاص بالأزواج الشبّان. فذهبت برفقة وَلَدها لزيارة أهل زوجها في برلين. تحمّلاها. وسقطت أولى القنابل، فغادرت، مسألة عادية، وكانت تضحك من جديد، وغالباً ما كانت تصرخ أيضاً وتجعلك ترتعد.

كانت تنسى الزوج وتحضن ولدها بقوّةٍ حتّى أنّه كان يبكي لشدّة ما تضمّه إليها، وكانت تلازم المنزل حيث كلّ من فيه يتجنّب النظر في عيني الآخر بعد وفاة الشقيقين، كأنّه ذهول أقرب إلى البله. ألم يتبقّ شيء؟ وهل انتهى كلّ شيء؟ قداديس لراحة الموتى، أمراض الأطفال، الستائر مدلاّة، تبادل رسائل مع بعض أصدقاء أيام الصبا، المساعدة في أعمال المطبخ وأشغال الحقل التي تتوقف باستمرار لنقل الصغير إلى الفيء. ثمّ صفارات الانذار، التي باتت تصدح حتى في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الريف، وتراكض الأهلين في اتجاه المغارات المحدّدة سلفاً لتكون ملاجىء أثناء الغارات، أول حفرة ضخمة في ساحة القرية، ملعب الأولاد فيما بعد ومكبّ قاذورات.

كان وضحُ النهار بدوره يذكّر بالأشباح، وعاد الحيِّزُ، الذي لفرط مكابدته كلَّ يوم كأنّه انتُزِع من كوابيس الطفولة وأصبح، على هذا النحو، مألوفاً، ليسكن النفوس من جديد في هيئة ظهور مفارق.

إزاء كل هذه الأحداث كانت أمي تبدو ماثلةً هناك، فاغرة الفم. لم تكن قد أصبحت خوّافةً بعد، بالنسبة لعدوى الخوف المستشرية بين الآخرين، كان في استطاعتها، ربّما، أن تنفجر بضحكة عاجلة لأنّها تخجل في الوقت نفسه من احساسها بأن جسدها ينفصل عنها فجأة ويكتسب ذلك القدر من الثقل. «ألا تخجلين!» أو: «ينبغي أن تخجلي!». فقد كانت مثل هذه العبارات خيط كلام الكبار الموصول إذ يوجّه للفتاة الصغيرة التي كانتها وعلى الأخص حين أصبحت مراهقة. ففي مثل هذا الوسط الكاثوليكي والريفي، كان كلّ مظهر لحياة أنثويّة خاصة يُحمل، أولاً، على غير محمله حتّى ولو كان غير مقصود. نظراتٌ مواربة حتّى لا يعود الارتباك مقروناً، للتعبير عنه، بإيماءات أو حركاتٍ من الوجه بل تُصيبُ في عمق الأعماق وتنفرّ المشاعر الأكثر تلقائية. «نساء متورّدات الوجنات» حتّى في الغبطة لأن العُرفَ يَفرض أن يخجلن من هذه الغبطة. والوجه، لم يكن يشحب، بل يتورّد، في الأحزان، ولا يُذرف الدمع بل يقطر العرق.

في المدينة، استطاعت أمّي أن تحسبَ أنّها وجدت شكلاً للحياة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يلائمُ طبيعتها بعض الشيء، طبيعتها التي كانت تتآلف معها بأية حال ـ إلّا أنها كانت تلاحظ أنَّ شكل حياة الآخرين، باستبعاده لأي احتمال آخر، كان يزعم بأنّه وحده مغزى الحياة المفضية إلى الخلاص. وعندما كانت تتحدّث عن شخصها، بغير عبارات تفيد واقع الحال، كانت نظرة واحدة، مجرّد نظرة، كافية لاسكاتها. فالغبطة أثناء العمل، ورندحة لحن خافت، ما كانت إلا من قبيل الجنون، حتّى في غياب من يراقبك وفي عزلتك، كنت راضخة لهذا الرأي. بالنسبة للآخرين، لا بدّ أن الحياة كانت أيضاً عبرةً، كانوا يأكلون القليل للعبرة، ويلتزمون الصمت للعبرة، ولا يعترفون بخطاياهم إلّا ليذكّروا من يمكث في منزله بخطاياه.

وساد القحط. ولم تكن أية محاولة شخصية للتفسير إلا بمثابة الردّ على هجوم. وكان الاحساس بالحرية سائداً ـ ولكن دون النجاح في التعبير عنه. الآخرون كانوا، من دون شك، أطفالاً. ولكنَّ الضيق يكمن في أنَّ من ينظر هذه النظرات النقدية هم أطفال.

بعد نهاية الحرب بقليل، تذكّرت أمّي زوجها، وذهبت، دون أن يدعوها أحد، مرّة ثانية إلى برلين. وكان الزوج أيضاً قد نسي أنّه ذات يوم راهن على الحصول عليها، وكان يعيش مع صديقة. ألم يكن ذلك الزمن زمن حرب؟

ولكنّها كانت اصطحبت الطفل معها، فراعيا، كلّ من جهته، مبدأ الواجب على مضض.

أقامت العائلة في شقة كبيرة مؤجّرة في ناحية برلين ـ بانكاو، وكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزوج سائق حافلة كهربائية ويشرب، وكان قاطع تذاكر في الحافلة الكهربائية ويشرب، خبّازاً ويشرب، وكانت الزوجة تذهب باستمرار لمقابلة مستخدمه بصحبـة طفلها الثاني الذي أنجبته وترجوه بأن يحاول مرّة ثانية، قصّة عادية ليس أكثر.

فقدت أمّي، في ظروف ذلك البؤس، اكتناز خديها الريفيين وأصبحت امرأة على درجة عالية من الأناقة. كانت دائماً شامخة الرأس واكتسبت مِشية مميّزة. وكان باستطاعتها أن ترتدي أي شيء فيليق بها. لم تكن في حاجة لفروة ثعلب على كتفيها. وحين كان الزوج، يستعيد صفاءه بعد الثمالة، ويتقرّب منها ليقول لها إنّه يُحبّها، كانت تطالعه بابتسامةِ اشفاق عنيدة. إذ لم يبق ثمة شيء من شأنه أن يخضّ كيانها.

كانا غالباً ما يخرجان معاً ويبدوان كزوجين منسجمين. وحين يكون ثملاً، يُصبح سفيهاً ، وكان عليها، إذذاك، أن تبدي له بعض القسوة. وكان يضربها حين لا تجد ما تقوله له، فبرغم كل شيء إنّه هو الذي يُعيل البيت.

عمدت إلى إجهاض نفسها بواسطة إبرة من دون علم زوجها.

أقام لفترة في بيت والديه، ثمّ أعادوه إليها. ذكريات طفولة: الخبز الطازج الذي كان يأتي به أحياناً إلى البيت، وأرغفة الشيلم السوداء الدسمة التي كانت تجعل الحجرة من حولها أكثر ضوءاً، كلام الأمّ اللطيف. هناك أشياء في هذه الذكريات أكثر مما فيها أشخاص، بُلبُل يحجل في شارع مُهدّم ومقفر، ندف شعير في ملعقة صغيرة، الزبد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرمـادي لوجبةٍ ضئيلـة في قصعة من المعـدن الأبيض ذات دمغـة بالأحرف الروسيّة، أمّا بالنسبة للأشخاص فمجرّد نتف: شعر، وجنات، آثار جراح ظاهرة في الأصابع ـ فقد كـان لأمّي أثر جرح قديم، من عهد الطفولة، في سبّابتها أصبح على شكل انتفاخ دهني، وكنت أمسك بهذه الحدبة الصغيرة الصلبة حين كنت أصحبها.

لم تُصبح شيئاً إذن، وما عاد في وسعها أن تصبح شيئاً وكان عبثاً أن يتنبّأ لها أحدٌ بذلك. وكانت تتحدّث عن «سنواتها الماضية» ولم تكن قد تجاوزت الثلاثين. لم تكن قد رضخت لأي شـيء حتى ذلـك الحين، إلّا أن ظروف الحياة كانت قد أصبحت بائسـة جداً، بحيث كـان عليها، ولأوّل مرة، أن تحكم العقل فيما تفعله. رضخت للحسّ السليم دون أن تفهم منه شيئاً. وشرعت تتخيّل الأمور وحتّى أنها كانت تحاول، بقدر المستطاع، أن تحيا وفق ما تقتضيه هذه الأمور ـ وكان: «كوني متعقّلة إذن» ـ استجابة العقل ـ «ولكنني هادئة جدّاً!».

كانت إذاً مُتنَازَعة المشاعر، وتعلّمت هي نفسها المشاركة، مشاركة الأشخاص والأشياء، ومع ذلك فإنّ المشاركة لم تُعنها بأي شيء: الأشخاص، أي زوج ليس بالإمكان مخاطبته، وأولاد ليس بالامكان مخاطبتهم بعدُ، إذن لا حساب لهم، والأشياء لم تكن متوفّرة إلا بمقادير الحدّ الأدنى ـ وكان عليها أن تصبح مقتّرة ومقتصدة: إذ لا يحق لنا أن ننتعل حذاء أيام الآحاد في أيام الأسبوع الأخرى، وينبغي تعليق ثوب المناسبات على مشبكة ما أن نعود إلى المنزل، وشبكيّة المؤن ليست مصنوعة للعب! الخبز الطازج لن يُقدّم على المائدة قبل الغد. (وفيما بعد، كان دور ساعتي التي حظيت بها بعد سرّ الميرون والتي حُرمتُ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منها لتُحفَظ في خزانة مقفلة بعد الاحتفال مباشرة).

كانت تتصلّب في عجزها وتعطي أكثر مما تستطيع. وباتت كثيرة الشكوك تخفي ما آلت إليه خلف مظهر من عزّة النفس المصطنعة والقلقة، لا تلبث أن تتكشف، لدى أدنى إساءة، عن كائن أعزل يتملكه الرعب. إذ كان من السهل إذلالها.

كانت تحسَب، شأن والدها، أنّه لم يعد بإمكانها أن تخصّص نفسها بشيء ولكنها كانت لا تني تطلب من الأولاد، بابتسامة خجولة، أن يذيقوها قضمةً من حلواهم.

كان الجيران يحبّونها ويجلّونها، فقد كانت لها تلك الطبيعة النمسوية المحبّة للألفِ، والغِناء، كانت امرأة مستقيمة، لم ينل من مسلكها تكلُّفُ أهل المدينة، ولا شيء فيها يستوجب الذم. حتّى أنّها كانت تتدبّر أمرَ تفاهمها مع الروس إذ تحدّثهم بالسلوفيّة. كانت تقول لهم أشياء كثيرة وتستنفد مفرداتهم القليلة المشتركة، وكان ذلك يُشعرها بالحرية.

لكنّها لم تكن تشعر أبداً برغبةٍ في خوض أيّ مغامرة عاطفية. فسرعان ما يضيق صدرها أمام احتمال من هذا النوع. فقد باتت مواعظ الحشمة المتواصلة نوعاً من الفطرة في أعماقها. ولم تكن ترى في المغامرة العاطفية سوى ما يودّ أحدُ ما «أن يناله منها». وكان هذا يدفعها إلى التراجع، هي التي لا تنتظر شيئاً من أحد. أمّا الرجال الذين أحبّت رفقتهم فيما بعد فكانوا «رجالاً نبلاء»، وكانت الدعة التي تجدها في رفقتهم تغمرها حناناً. فهي تشعر بالاسترخاء، وحتّى

بالسعادة لمجرّد أن تعثر على من تستطيع التحدّث إليه. كانت لا تقبل بأي تودّد، وإذا قبلت فبالحذر الذي كانت تقرنه فيما مضى بإحساسها بحريّتها - إلاّ أنها أصبحت لا ترى طيف هذه الحرية إلاّ في الأحلام.

لقد أصبحت كائناً محايداً، تبدّد كيانها في المشاغل اليوميّة الرتيبة.

لم تكن مستوحدة، إذ يحدث لها أن ترى نفسها جزءاً من شيء ما. ولكنْ لم يَكُنْ هناك مَنْ يمنحها جزءها الثاني. «كان واحدنا يُكمّل الأخر»، قالت وهي تتذكّر الأيام الخوالي التي قضتها مع مُستَخْدَم مكتب الادخار. فقد كان لا يزال في أعماقها مثال الحبّ الخالد.

فترة ما بعد الحرب. العاصمة: كان يستحيل العيش هنا كما كان يحيا أهل المدينة فيما مضى. الذهاب والإياب بين الانقاض من أقصى المدينة إلى أقصاها، بحثاً عن الدروب المختصرة، ومع ذلك كان ينبغي المكوث دائماً في آخر صفوف الانتظار الطويلة، وسط تدافع الناس الذين استحالوا إلى مرافق صلبة، والأنظار سارحة في الفضاء. ضحكة وجيزة تَعِسة، ورفضٌ أن تنظر إلى نفسك والأنظار المتنقّلة في الهواء، كأنظار الجيران، أن تعرّض نفسك لأن تُرى، مثلهم، مُعوزاً، والكبرياء المجروحة، ولكن، مع ذلك، محاولات للثبات، لاستعادة الثقة بالنفس، تثير الشفقة لأنها تعني، بالذات، أنّك أصبحت صورة مطابقة للجيران وشبيهاً بهم: أن تُدفَع وتَدْفَع، أن تُزاحَمَ وتُزاحِمْ أن تُشتَمَ وتَشْتِمْ. ذلك الفم الذي استطاع أن يكون فاغراً من حين لآخر، فم المراهقة المذهولة (أو المرأة التي تتصنّع الذهول)، فم المرأة الريفية التي تُصاب بالهلع بعد حلم يقظة يُسرّي عن القلب، ذلك الفم كان مطبقا دائماً في تلك الحياة الجديدة لكي يُبرهن على القدرة

على التكيّف مع الحسّ العام بحرية القرار والذي لا يمكن إلاّ أن يكون مظهراً وواجهة لأنّه لم يعد بالإمكان، عملياً، اتخاذ أي قرار شخصي.

قناعٌ بمثابة وجه ـ ليس قناعاً جامداً بل قناعاً متحركاً ـ صوتٌ مموّه إذ يَجهد في خشيةٍ لأن يكون محايداً، لا يقلّد فقط اللهجة الغريبة بل العبارات المجهولة أيضاً ـ «ليرحمك الله!» ـ «لم تصب!» ـ «مرّة أخرى كانت لك شهية غول!» وقارٌ يحاكي وقار الآخرين، ذلك التخلُّع في المشي، قدمٌ أمام الأخرى... وكلّ هذا ليس بهدف التحوّل إلى شخص مختلف، بل لكي يكون لها «قالب». التحوّل من شخصيّة ما قبل الحرب إلى شخصيّة ما بعد الحرب، من فلاّحة إلى بنت مدينة يُمكن وصفها بإيجاز: طويلة القامة، نحيلة، شعر قاتم.

مثل هذا الوصف الذي كان وصفاً لقالَب ومظهر كان يُتيح لها أيضاً أن تشعر بأنها تحرّرت من تاريخها، لأنّ احساسها بذاتها لم يعد يتطابق إلاّ مع النظرة السريعة التي يرمقها بها غريب على أنها موضوع شهوة.

وهكذا وجدت نفسٌ لم تُسنح لها أبداً إمكانية التمتع بالدعة البرجوازية، ثقة متكلّفة على الأقل في محاكاتها البائسة لسلّم المعايير البرجوازي في صلاتها مع الآخرين، على ما تفعله النساء بشكلٍ خاص، و: هذا ليس النوع الذي يعجبني من البشر، وأنا، لستُ من الطراز الذي يعجبه؛ أو: أنا من الطراز الذي يعجبه ولكنّه ليس من الطراز الذي يعجبني، أو أيضاً: لقد خُلقنا واحدنا للآخر، وإلاّ لما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تآلفت مشاعرنا ـ وكلّ أشكال العلاقة محسوبة سَلَفاً كمعايير قسريّة، يبدو بإزائها كل سلوك «معزول» نسبيّاً، وعلى قدر من التلاؤم مع آخر، على أنه استثناء لهذه المعايير. «في الحقيقة لم يكن من النوع الذي أحبّه»، كانت تقول أمي مثلاً في معرض حديثها عن أبي. كان العيش إذن يتواصل وفق معيار «الطراز» أو القالب، يُداخله الاحساس اللذيذ بتحوّل المرء إلى شيء ولا يُخالطه الاحساس بالضيق لا من الذات ولا المنبت ولا فرديّته العرجاء والعوجاء، ولا ظروف العيش المتجدّدة كل يوم. فبوصفه «طراز» كان الانسان العادي يخرج من وحدته ومن انعزاله المشين أكبر قيمةً ويتلاشى ومع ذلك يُصبح شخصاً ما، له حضوره، ولو كان الأمر لا يتعدّى كونه مؤقتاً وعابراً.

وكان باستطاعة المرء الاكتفاء بالتسكّع في الشوارع مدفوعاً بكل ما يدعه، بلا اكتراث، خلفه، رافضاً كلّ ما يتطلّب منه التريث ويواجهه بذاته من جديد: صفوف الانتظار، جسر كبير فوق نهر «سبري» واجهة مخزن لِلُعَبِ سيّارات الأطفال. (وكانت قد أجهضت نفسها مرّة أخرى في السرّ). ما من مُهْلَةٍ لكي تستريح، ما من بطالة لكي تتخلّص من ذاتها. حكمتها: «اليوم لن أفكر في شيء، اليوم سأكون دائماً مغتبطة».

كانت تنجح في ذلك أحياناً، فيتلاشى الفردي في الطراز. وحتّى الكآبة لا تعود إذذاك سوى هنيهة عابرة من الغبطة: «منسية كحصاة على الطرقات، كم أنا منسيّة، كم أنا منسية!». وبفضل هذا الاكتئاب المفتعل بغير حساب والذي يُميّز هذا المناخ الشعبي المُصطنع كانت تساهم بحصتها من اللهو العام ولهوها الخاص، وكان من شأن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

برنامج اللهو هذا أن يتواصل عبر قصص الرجال الظريفة والتي كانت نبرتها الموحية بسفاهات تتيحُ إطلاق القهقهات بلا تحفُّظ.

ولكنْ في البيت الجدران الأربعة، وهي وحدها في وسطها. ولم يكن هناك سوى امتداد وحيد للهو، الدندنة، دندنة اللحن الراقص وهي تخلع نعليها وتتملّكها لبرهة تلك الرغبة في التفلُّت، ولكنّ انطلاقة الخطوات تُقاسُ باتساع الردهة، من الزوج إلى الولد، ومن الولد إلى الزوج، من شيء إلى آخر.

كانت تعاني دائماً من تشوش الذهن. ففي البيت لا تعود أواليات الهروب البرجوازي الصغيرة صالحة للاشتغال لأنّ ظروف الحياة - غرفة وحيدة للسكن، هاجس الخبز اليومي الذي يكاد يكون الهاجس الوحيد، أشكال التفاهم مع شريك الحياة التي تكاد تنحصر بالإيماء وبالاشارات الآلية والعلاقات الجنسية القسرية - لم تكن سوى الظروف السابقة على العلاقات البرجوازية. إذ كان ينبغي الخروج من المنزل الزوجي لكي يتاح لها، على الأقلّ، أن تتمتّع بجانب ضئيل من الحياة. في الخارج كانت شخصيّة المُستقوي، وفي الداخل النصف الضعيف الخاسر الأبدي. تلك لم تكن حياة!

كانت غالباً ما تتحدّث عنها فيما بعد: - كانت بالنسبة لها حاجة للكلام - وإذ تتكلّم كانت تهتزّ من الأعماق لشدّة يأسها وقرفها، ولكن بقدر كبير من الخوف بحيث أنها عوضاً عن دفع القرف واليأس كانت تُخبئها في ارتعاشتها.

نحيب سخيف في دورةِ المياه حين كنتُ لا أزال طفلاً، أحدٌ ما يتمخّط، عينان حمراوان ومعتكرتان. لقد كانت. لقد وُجِدَت. ولم تكن شيئاً.

ما دُوِّن هنا حول شخص محدَّد يبدو، بالطبع، غير دقيق بعض الشيء. ولكن وحدها العموميّات التي تُغفل عمداً أمّي بوصفها الشخصيّة الرئيسية والوحيدة، من دون أدنى شك، في قصّة مكرّسة لها، من شأنها أن تثير اهتمام آخرين غيري ـ فالعلاقة البسيطة بين حياة مليئة بالحركة ونهايتها المفاجئة ليست هنا سوى وفاء بدَيْن.

ولكنَّ وجه المخاطرة مع هذه العبارات المجرّدة والصياغات يكمن في أنها تميل لأن تُصبح مستقلّة. وإذذاك تنسى الشخصية التي تنبثق منها ـ ردّ فعل متسلسل من الصياغات والجُمَل كما قد تحلم الصور، إذ يُصبح الأدب طقساً حيث لا تكون كل حياة فرديّة سوى ذريعة.

هذان المنزلقان ـ العلاقة البسيطة من جهة ومن الجهة الثانية غياب الشخصيّة الخفيّ داخل الجُملِ الشعرية ـ يُبطئان من حركة الكتابة لأنني، في كل جملة، أخشى أن أهوي. هذا صحيحٌ في كل عمل أدبي ولكنّه صحيح هنا بصفة خاصة، لأنّ قوّة الوقائع من الطغيان بحيث أن المخيّلة أصبحت عزلاء.

ولهذا السبب أيضاً انطلقتُ، في البداية من الوقائع وسعيتُ إلى إيجاد صيغٍ لها. ثمّ أدركت بأنَّ البحث عن صياغات كان يعني ابتعادي عن الوقائع. عندئذٍ انطلقتُ من الصياغات التي كانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متوفّرة، في مخزون المأثورات، وليس من الوقائع، وانتقيت من حياة أمي المواقف التي كانت متوقّعة في هذه الصيغ. ذلك أنّ وحدها اللغة العمومية وليس الانتقائية، من شأنها أن تتيح العثور، من بين هذا العدد من اللحظات التي لا معنى لها، على تلك التي ينبغي إفشاؤها.

إذن، أنا أقارن المأثور العام من الصيغ التي ترد في سيرة امرأة بالحياة الخاصة التي عاشتها أمّي، جُملةً جملة. وإذذاك تنبثق الكتابة الحقيقية من حدّ التطابق وحدّ التناقض. المهمّ أن لا أقحم شواهد خالصة. وحتّى حين تبدو الجُمَل على أنها شواهد فلا ينبغي أن ننسى، ولو للحظة واحدة، أنها تنطبق، فيما يعنيني أنا على الأقل، على شخص محدّد ـ ولكي تبدو لي قابلة للاستخدام ينبغي أن تكون الفكرة المركزية، المتماسكة والمحسوبة، هي نفسها تلك الذريعة الشخصيّة والخاصة إذا جاز القول.

خاصيّة أخرى لهذه القصّة: من عبارة إلى أخرى لا أبتعد عن الحياة الداخلية للذوات التي أصفها لكي أرى إليها، كما هو شائع في مثل هذه الحال، من الخارج وكأنّها حشرات وقعت أخيراً في الأسر، شاعراً، في آخر المطاف، بأنني تحرّرت منها وبتُّ في جوّ احتفال، بل على العكس من ذلك، أحاول بجدّية ثابتة وعناد أن أقترب، عبر الكتابة، من أحدٍ ما بالرغم من أنّ ما من عبارة تتيح لي أن أتملّكه بكليّته، بحيث أكون مجبراً باستمرار أن أعود إلى نقطة الانطلاق ولا يتأتّى لي أبداً التناظر المعتاد لسَمْتِ طيران العصفور.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبالفعل، فأنا أنطلقُ عادةً من ذاتي ومن قصصي الخاصة ولا أتملّص منها إلاّ بمقدار ما أتقدّم في سيرورة الكتابة لكي ننفصل أخيراً، أنا وقصصي، كناتج عمل وسلعة معروضة - ولكنني هذه المرّة - وأنا لستُ «سوى الواصف» وليس بإمكاني في الوقت نفسه أن ألعب دور «الموصوف»، لا أفْلحُ في اتخاذ هذه المسافة. فليس في مستطاعي سوى أن أباعد ما بيني وبين نفسي، أما أمّي فموجودة، كما أُصبحُ أنا نفسي موجوداً فيما أرى نفسي على الأقلّ، ولا تتحوّل إلى ظلّ مصطنع يزدادُ صفاءً سريرة، ومزاجية وتهويماً في فضاء ذاتها. فهي لا تستسلم للأسر، وتظلّ عصيّة على الادراك، والعبارات تتراطم في العتمة وتتشابك على الورق.

«شيء ما عصيّ على القول»، على ما يقالُ غالباً في القصص، أو: «شيء ما لا يوصف»، وهذا ما أراه في أغلب الأحيان نوعاً من المخارج الرديئة. ومع ذلك فإنّ هذه القصّة، بالذات، تدور بالفعل حول شيء بلا إسم، حول ثوانٍ من الرعب تُفقدكَ القدرة على الكلام. وهي تتكلّم على هنيهات ينتاب الوعي فيها رعشة هلع. حالات من الرعب هي من الإيجاز بحيث أن الكلام يوافيها، على الدوام، متأخراً. عناصر حلم بغيضة بحيث أنّها تولّد الانطباع بأنّها تقرض الوعي فعلاً. أنفاس محبوسة، تصلّب أطراف، «بردٌ صقيع تسرّب إلى ظهري، ويقشعرّ أسفل رقبتي - مجرّد حالات لا تحدث إلاّ في قصص الأشباح، حين نقفل الصنبور مسرعين بعد أن نفتحه لبرهة، حين نكون بمفردنا في الشارع ذات مساء، وفي يدنا قنينة جعة، مجرّد حالات، وما من قصّة تامّة ذات خاتمة مطمئنة أو مرتقبة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويكاد يستحيل فهمُ قصّة أمّي إلا في حياة الأحلام، ونقول بالكاد: إذذاك تُصبح مشاعرها مجسّدة وملموسة بحيث أنني أحياها على أنها قرينتها وأتماهى بها. ولكن هنا أيضاً ليست هذه الوقائع سوى هنيهاتٍ سبق وأشرت إليها وسوى حاجة ماسّةٍ للبوح تصادف أقصى درجات الصمت. لهذا السبب نحاكي الترسيمة المنظمة لسيرة عاديّة ونكتب: «ذات يوم - فيما بعد» و«لأن - وبالرغم من»، «كانت، وجدت، لم تكن شيئاً»، آملين بذلك التغلّب على تجربة الرعب. وقد يكون هذا هو الجانب الفكاهي من المسألة).

في بدايات صيف ١٩٤٨، غادرت أمّي برفقة ولديها، وأصغرهما فتاة لم تبلغ عامها الأول وضعت في سلّة مؤن، القطاعَ الشرقي من دون أوراق ثبوتية. فقد اجتازوا، على جاري العادة آنذاك، عند الفجر نقطتي الحدود خلسةً، وبالطبع استوقفتهم كلمة «قف مكانك» التي صرخ بها أحد حرّاس الحدود الروس وجاء ردّ أمّي باللغة السلوفانيّة بمثابة كلمة مرور، وأمّا الصبي فلم يغب عن ذهنه فيما بعد تذكار الرفقة الثلاثية والفجر والهمسات الخافتة والمخاطر، ثم الإثارة المُبهجة أثناء الرحلة في القطار عبر النمسا. وعادت مجدّداً لتقيم في منزل ذويها حيث أُفرِدَ لها مَسْكنٌ من حجرتين لها ولعائلتها. عمل الزوج كمساعد لصهره النجّار، ومن جديد عادت لتنتمي إلى محيطها القديم.

لم يكن الأمر شبيهاً بالحياة في المدينة، فهي هنا تشعر بالاعتزاز لأنّها أنجبت ولدين وكانت تخرج دائماً وسط الناس برفقتهما. ولم تعد لتطيق أي إساءة من أحد. إذ كان من شأنها، فيما مضى، أن تشعر الآخرين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ببعض التعالي؛ أمّا الآن فقد باتت لا تبالي وتسخر منهم علناً. كانت تسخر من الجميع بحيث أنّهم جميعاً أحسّوا بالاطمئنان حيال الآخرين. وبخاصّة كان هناك الزوج، الذي غالباً ما يتكلّم على مشاريعه التي لا تُحصى وكانت تسخر منه بقسوة حتّى أنّه سرعان ما يرتبك فلا يعرف ماذا يفعل غير التحديق عبر النافذة وقد أصبح وجهه كابياً. إلا أنّه لا يلبث أن يعيد الكرّة في اليوم التالي. (إن صوت ضحكات أمي الساخرة كان باعثاً للحياة في تلك الفترة!) وكانت لا تني تصدّ الولدين إذ يطلبان منها شيئاً، وتسخر منهما. وبالفعل فقد كان من المُضحك أن يبدي واحدنا رغبته في شيء ما. وفي تلك الحقبة أنجبت ولدها الثالث.

استعادت لهجتها المحلية لكنّها فعلت ذلك بقصد اللهو: امرأة عاشت في الخارج. وكانت صديقات صباها قد عُدن، هنّ أيضاً، للإقامة في البلدة. وكأنهنّ لم يغادرنها إلّا لإقامة قصيرة وعابرة في المدينة أو في المهجر.

في كنفِ هذا الشكل من الحياة المكرّسة بمعظمها لتدبير شؤون المنزل والعيش اليومي، كانت الصداقة قد تعني أن يعرف المرءُ أشخاصاً آخرين ولكنّها لا تعني الإفضاء بأسراره الحميمة. وإلى ذلك كان واضحاً أن كل الناس يعانون من الهموم نفسها ـ وما يميّز الواحد عن الآخر يكمن في أنّه يتحمّلها بصبرٍ أو يتحمّلها بضيق، مجرّد فارق في المزاج.

أما الذين كانوا لا يعرفون الهمَّ مهما كان في أوساط هذه الشريحة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الأهلين فكانوا متفرّدين؛ بُلهاء. إذ كان السكارى لا يتحوّلون إلى ثرثارين بل يزداد صمتهم أكثر فأكثر، وكانوا يطلقون الشتائم أو يقهقهون فجأةً بأعلى ما يستطيعون، ثمّ يغرقون من جديد في ذواتهم وفي النهاية، عندما تحين ساعة الاقفال، يجهشون فجأة بالبكاء ولأسباب غامضة ويعانقون أو يضربون ندماءهم.

لم يكن هناك ما يرويه المرء عن ذاته، وحتّى في الكنيسة، خلال سرّ الاعتراف في عيد الفصح، حين، لمرّة في السنة، يستطيع واحدهم أن يبوح بشيء عن نفسه، لا يكون الاعتراف سوى بعض محفوظات التعليم الديني تتردّد بغمغمةٍ تبدو فيها الأنا أكثر غربةً بالفعل كأنها قطعة من القمر. وحين كان أحد ما يتحدّث عن نفسه ولا يكتفي بأن يروي أشياء على محمل المزاح، كان يُنظر إليه على أنّه «فريد من نوعه». فالمصير الشخصي، إذا افترضنا أنّه في حالة ما يمثّل مظهراً فريداً، كان يفقد ذاتيّته حتّى كسور الأحلام ويُستهلك في الشعائر الدينية، وأعراف السلوك الحسن، بحيث لا يبقى شيء من الإنسان في شخصيّة الأفراد. وكانت كلمة «فرد» لا تعني، بأيّة حال، سوى الشتيمة.

التلاوة الأليمة، التلاوة المجيدة، عيد الحصاد، عيد الاستفتاء الشعبي. الأمسية المكرّسة للنساء. نَخْبُ الصداقة. الهزل في مواقيته المحدّدة؛ سهرة الصلاة على روح الميت. قبلة رأس السنة: مشاكل شخصيّة، التعطّش لإقامة صلات، حسُّ البناء المؤسّسي، حس التفرّد، الحنين للأماكن البعيدة، الشهيّة الجنسية التي تُظهر في أشكال تجسّدها كلّ الرؤى المختلفة للعالم المعكوس حيث انقلبت كلّ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأدوار، وكأنّ المرء ما عاد مُشكلة ذات نفسه.

أن تحيا بعفوية ـ نزهة في أحد أيام الأسبوع، التورّط في حبٍّ ثانٍ، أن تكون امرأة وتجرؤ على شرب كأس بمفردها في أحد النُزُل ـ فهذا يعني الاستسلام للفجور. قد يكون بإمكانها أن تشارك آخرين في الغناء أن تسمح لنفسها بالرقص «عفواً». ولفرط ما تُحرَم من قصّتها الخاصة ومشاعرها الخاصة تُصبح شيئاً فشيئاً «حروناً»، هي نفسها الصفة التي تستخدم لغير العاقل والحيوانات الأليفة، الجياد مثلاً: فتُصبح بريّةً بعض الشيء ولا تعود تتكلّم أبداً تقريباً أو تفقد عقلها وتملأ الدنيا صراخاً في أي مناسبة.

كانت الشعائر التي أشرنا إليها تلعب إذذاك دور مؤاساة. المؤاساة: لا تأتي إليك، بل تجد نفسك في غمارها، راضخاً في النهاية للاعتراف بأنك لا شيء كفرد، أو على الأقل لا شيء مميّزاً.

قطعاً لم يكن أحد لينتظر مَن يبوح له بأمرٍ شخصيّ لأنّ لا أحد يشعر بالحاجة لأن يطلب شيئاً ما من الآخر. وكانت الأسئلة جميعها قد أصبحت صيغاً جوفاء والأجوبة عليها جاهزة مُسبقاً بحيث لم تعد هناك حاجة لأن يصوغها بشرٌ بل كانت الأشياء تكفي: المثوى الليّن، قلب يسوع الرقيق والسيدة العذراء العذبة الثكلى استحالت جميعها إلى أنصاب جامدة يكمن فيها حنين الموت الذي يكابده المرء ويُخفّف من شقاءِ كل يوم. وكانت تختبىء خلف هذه الأنصاب المؤاسية. وكانت الصلة اليوميّة المنتظمة بهذه الأشياء نفسها تجعلها، بدورها، مقدّسةً. لم يكن التبطّل عذباً بل العمل. فهو، بأية حال، الملاذ الأخير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقدوا عادة النظر. ولم يكن «الفضول» سمة طبع بل وقاحة نسوة أو إناث.

كانت طباع أمّي مختلفة تثير الفضول ولم تكن تلوذ بنصبٍ مؤاسٍ. لم تكن تنهمك في العمل بل كانت تنجزه بلا اكتراث ولذلك لم تكن تشعر بأنها تحقق ذاتها. كانت وساوس المذهب الكاثوليكي غريبة عنها ولا تؤمن إلاّ بسعادةٍ هنا على الأرض، إلاّ أنّ هذه السعادة لم تكن بدورها سوى فعلِ مصادفة. وبفعل المصادفة أصابها النحس.

كان الناس يعتادون شيئاً فشيئاً على معرفة طباعها!

ولكن كيف؟

لكم أرادت أن تكون عابثةً بالفعل! وذات يوم استطاعت أن تحقّق امنيتها:

«لقد أردت أن أكون عابثة اليوم، فابتعتُ صداراً!» وكذلك اعتادت على التدخين، وهي ذروة المبالغة في بيئتها، حتّى أنها كانت تدخّن علناً.

نساءٌ كثيرات في المنطقة كنَّ يشربن الكحول سرّاً. وكانت شفاههنّ الغليظة المتغضّنة تُشْعرها بالتقزّز: فتلك لم تكن الوسيلة الناجعة لانتزاع اعتراف الآخرين بهنّ. كان يحدث لها أحياناً أن تستسلم لنشوة الشراب ـ وتشرب نخب صداقةٍ ما. وهكذا لم تلبث أن أقامت علاقات ودّية مع النساء الفتيّات المرموقات وخاطبتهنّ بلا تكلّف. وكان يُرحَّب بها في وسطهنَّ الذي تشكّل حتّى في هذه البلدة الصغيرة بفضل بعض الأسر الميسورة. وذات يوم فازت بالجائزة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأولى في حفلة تنكرية راقصة، إذ تنكّرت بأزياء امرأة رومانية. فالمجتمع الريفي كان يُغفل، ولو في الظاهر فقط، الفروقات الطبقيّة في ساعات اللهو على الأقلّ، إذ يكفي أن تكون «مستقيماً مَرِحاً ومحبّاً للفكاهة».

في البيت كانت «الأم»، وحتّى الزوج كان يناديها في معظم الأحيان بهذا الاسم وليس باسمها الحقيقي. وكانت تغضّ النظر، فهذا الاسم هو خير ما يعبّر عن صلاتها بزوجها. فهو، في الحقيقة، لم يكن في أي وقت من الأوقات، لا من بعيدٍ ولا من قريب، حبيبها.

وباتت هي التي تدَّخر الآن. ولكنّ الادّخار ما عاد يعني اقتطاع مبلغ من المال وتوفيره كما كان يفعل الأب، بل يعني بالضرورة التوفير من قيمة المصارفات، أي التقليل من الاحتياجات لدرجةٍ أنها أصبحت «أموراً تُشتهى» وتُختصرُ أكثر فأكثر.

وكان عنصر الاطمئنان لا يزال ماثلاً داخل هذا الهامش البائس من العيش لأنّه على الأقل يقلّد ترسيمة العيش البرجوازي: حتّى ولو كانت مُضحكة، فهناك دائماً ما يقتضي ترتيب الأولويّات في الانفاق، فمنه ما كان ضرورياً، ومنه ما كان مفيداً، والبقيّة ليست إلّا في باب الترف.

وحده الطعام كان ضرورياً؛ والمفيد احتياجات التدفئة في الشتاء؛ والباقي كلّه لم يكن إلّا ترفاً.

وأن يتبقّى شيءٌ ما لِمَا يُحسبُ ترفاً أمرٌ من شأنه أن يُعطيك، مرّةً في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأسبوع على الأقلّ، إحساساً برغد العيش: «إننا نتدبّر أمورنا أفضل بكثير مما يفعله آخرون!».

وكان بالإمكان إذاً تخصيص النفس بالترف التالي: تذكرة لمشاهدة فيلم في الصفّ التاسع من الصالة، وبعد ذلك التلذذ بكأس من النبيذ الفوّار. قالب شوكولاته بنسدورب بشلنغ أو إثنين للأولاد في صبيحة اليوم التالي. ومرّة واحدة في السنة زجاجة شراب البيض من صنعٍ منزلي؛ وفي بعض أيام الآحاد الشتوية القشدة المخفوقة التي تُجمع خلال أيام الأسبوع بوضع قِدر الحليب، كلّ ليلة، على حافة النافذة بين واجهتي الزجاج. وعندئذٍ أيّ عيد! أو هذا ما كنت دوّنته لو أنها قصّتي أنا. إلاّ أن الأمر لا يتعدّى التقليد الحرفي لنمط عيش ليس في متناول اليد، لعبة الفردوس الأرضي التي يجيدها الأطفال.

عيد الميلاد: كانت تغلّف بورق الهدايا كل الأشياء الضرورية في أية حال. فيتم تبادل المفاجآت السارّة بما هو ضروري ولا غنى لأحد عنه، ملابس داخلية، جوارب، مناديل ويقول الجميع إنّ ما حظي به هو بالضبط ما كان يرغب فيه! كانت اللعبة تقوم على هذا النحو بأن يحظى الجميع بأي شيء تقريباً على أنّه هديّة، باستثناء الطعام؛ فقد كنتُ على سبيل المثال أشعر بالامتنان العميق حين أحظى بلوازم المدرسة الضرورية، فأضعها بجانب سريري كأنّها هدايا.

حياة محسوبة بدقّة وبما يتلاءم والمداخيل الضئيلة التي تُقاسُ براتب زوجها المحسوب هو أيضاً بساعات العمل، فتنكبّ على حساب قيمته كلّ شهر، مُنقِّبةً عن نصف ساعة تُضاف من هنا أو من هناك، وفي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطقس الماطر ينتابها الخوف لتوقّف العمل أو تخفيض ساعاته، عندما يمكث الزوج جالساً قربها في المطبخ الصغير، يتحدّث بلا انقطاع أو كَدِراً، ينظرُ بثبات عبر النافذة.

في الشتاء مُرتّب البطالة لعمّال البناء الذي يُنفقه الزوج على الشراب. والبحث عنه من نزل إلى آخر. كان يُريها ما تبقى منه بشيءٍ من المكر. وكان صنيعه هذا يجعلها، كل مرة، تنسحب بصمت، وتكف عن مخاطبته زاجرةً أولادها إذ يتحلقون حولها قلقين لصمتها فيلوذون بوالدهم الغارق في مشاعر الندم. الساحرة الشريرة! كان الأولاد يتخذون سحنة عدوانية لأنها صارمة متشدّدة. وكانوا ينامون خافقي القلوب مضطربين عندما يغيب الوالدان، يندسّون تحت غطاء السرير ما أن يطارد الرجلُ المرأة في أنحاء الحجرة عند الصباح. كانت دائماً تقف، تتقدّم خطوة فتنال لطمة جديدة، هي مثله قد أخرسها الغيظ، وفي آخر الامر كانت تفتح فمها وتكيل له ما يستحقه: «أيها الوغد! أيها الوغد!» وكان يستطيع دائماً أن يضربها كما يشاء وعلى أثر كلّ ضربةٍ منه كانت تردّ عليه بعبارة استهزاء.

وإلاّ كان أحدهما يكاد لا ينظر إلى الآخر، ولكنّهما في لحظات العداوة الصريحة تلك، كانا يتبادلان نظراتٍ حادّة ومباشرة، هو في سحنة رجلٍ متصاغر وهي في سحنة امرأة مستقوية. كان الأولاد تحت غطاء السرير لا يسمعون سوى وقع الضربات واللهاث، وأحياناً اصطكاك الأواني المرتجّة في خزانة المطبخ، وعند الصباح يصنعون لأنفسهم طعام الفطور بينما يكون الزوج فاقداً وعيه ممدداً على السرير وبجانبه زوجته مغمضة العينين متظاهرةً بالنوم. (هنالك أمر مؤكد: إن

هذا الأسلوب الوصفي يولّد انطباعاً بأنّه منقول حرفياً، منسوخ عن أساليب وصفية أخرى؛ من الممكن أن تنسخ بعضها بعضاً؛ اللازمة المبتذلة الأبدية؛ والتي لا صلة لها بعصرها؛ باختصار: «القرن التاسع عشر» ـ إلاّ أن هذا الأسلوب هو بالذات ما لا يمكن الاستغناء عنه، ذلك أن عناصر الوصف ، في الظروف الاقتصادية السالفة الذكر وفي تلك المنطقة على الأقل، كانت مماثلة ولا يطرأ عليها جديد إلاّ على هذا النحو، عناصر خارج الزمن، مكرّرة إلى ما لا نهاية، أي باختصار: القرن التاسع عشر. واليوم، ما زالت اللازمة إيّاها: إذ يكاد واحدنا لا يرى على لوحة البيانات أمام دار البلدية سوى لوائح الممنوعات المتعلّقة بالملاهي).

لم تهجر أُسرتها، لأنها أدركت موقعها بالضبط. «سوف أنتظر إلى أن يكبر الأولاد». عملية إجهاض ثالثة مصحوبة، هذه المرّة، بنزيف حادّ. ثمّ أصبحت حاملاً مرّة أخرى وهي على مشارف الأربعين. وكان التفكير في أي عملية إجهاض جديدة أمراً مستحيلاً، فأبقت على الجنين.

«الفقر»، كان مجرّد كلمة لا تخلو من معنى النُبل، كانت كلمة جميلة. أشبه بكتب المدرسة المُستعملة، لا تلبث أن تنبثق منها بعض التصوّرات: فقيرٌ حقاً لكنّه نظيف. فبوساطة النظافة كان الفقراء يستحقّون هبة العيش داخل المجتمع. إذ يُختصر التقدم الاجتماعي بنوع من تعلّم أصول النظافة. فما أن يُصبح المُعدَمون نظفاء حتى يستحيل «الفقر» إلى صفة فخريّة. وحتّى في دخيلة المعنيين أنفسهم ما عاد البؤس إلاّ وسخ بلادٍ تقوم على حشد أناس يرفضون الألفَ فهي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليست بلادهم.

«النافذة هي بطاقة التعريف بساكني الدار».

وكان المعوزون مثال الطاعة، ينفقون للتطهّر من دنسهم الخاص كلَّ المتوفّر لديهم تمثلاً بما يمليه عليهم ذهن يدعو إلى التقدّم على أساس النظافة. كان في استطاعتهم أن يُثيروا البلبلة في قناعات الرأي العام بمشاهد البؤس المنفّرة ولأنّها منفّرة بالضبط تبدو محسوسة وملموسة، إلاّ أنّ حياتهم بما هم «الطبقة الأكثر فقراً» المُطهَّرة والمُنظَّفة، كانت قد أصبحت محض تجريد يمتنع على أي تصوّر بحيث يصبح بالإمكان نسيانهم. كانَ البؤس حكراً على أشكال الوصف الحسّي، ولم يكن للفقر سوى الرموز.

وكانت تلك الأوصاف الحسيّة للبؤس لا ترتبط إلاّ بما يمثله البؤس من نفور جسماني، وكانت، هي نفسها، تولّد النفور والتقزّز عبر المراعاة في أسلوبها الوصفي، ولذلك بدل أن يتحوّل النفور إلى حافز للعمل، كان لا يُذكّر إلاّ بالمرحلة الشرجية من النموّ حيث يستطيع المرء أن يلتهم برازه.

ففي بعض البيوت مثلاً، قد يُستخدم الوعاء الواحد كمبولة في الليل وكقِدْر للعجين في النهار. كان يُغسل بالطبع قبل استعماله بالماء الغالي، لذلك لا يمكن القول إنّ الأمر خطير، إلاّ أنّ مجرد وصف هذه الواقعة من شأنه أن يثير التقزّز. «يقضون حاجتهم في وعاء ثمّ يستعملونه للأكل. ـ يععـ. . !». إنّ من شأن الكلمات أن تنقل هذا النوع من التقزّز والنفور، وعلى نحو لا تضاهيه مجرّد رؤية الأشياء، بحيادٍ لا يشوبه أي عناء. (فأنا أذكر كيف تنتابني قشعريرة عندما أقرأ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصفاً أدبياً لبقعة صفار البيض على سترة المنامة). ولذا أشعر ببعض الضيق حين أصف البؤس. ذلك أنّ ليس هناك ما يوصف في الفقر المنظَّف لكنّه على الرغم من ذلك يظلّ بائساً.

وعندما تطالعني كلمة «فقر» لا أستطيع دوماً إلاّ أن أفكّر على هذا النحو: كان في قديم الزمان؛ وهي العبارة التي غالباً ما تتردّد على أفواه من عرفوا هذه الحال، عبارة تعودُ في منبتها إلى الطفولة؛ لا ليس: «كنت فقيراً» بل «كنت إبناً لأناس فقراء» (موريس شوفالييه). سمعة مذكّرات لا تخلو من حذلقة اللباقة. غير أن ما يراودني الآن حول ظروف عيش والدتي يجعلني عاجزاً عن توشية ذكرياتي على هذا النحو. أن تكون منذ البداية مُرغمةً على العناية بالشكل دون الأشياء الأخرى: منذ أيام الدراسة فأوّل ما يطلبه مدرسّو الأرياف ويولونه الأولوية في تدريس الفتيات هو «الاعتناء بالأعمال الكتابية وشكل تقديمها»؛ وكانت هذه الأولوية تتواصل عبر ما يُفترض أن تضطلع به المرأة من الحفاظ، ولو ظاهرياً، على تماسك العائلة. ليس الفقر المُبتهج بل البؤس اللائق. أن تكون مجبرةً كل يوم على تأكيد قدرتها على تمالك ملامح وجهها الذي يفقد حيويّته تدريجاً.

ربّما كان الإحساس أقلّ قسوةً لو أنّ اللياقة استبعدت من مشهد البؤس، فعندئذٍ يبرز فيه الحدّ الأدنى من الوعي البروليتاري. إلاّ أنّ المنطقة كانت خالية من البروليتاريا، وحتّى من عامّة الشعب، وليس فيها على الأكثر سوى حفنة من الأهلين من فئاتٍ رثّة. ليس فيها من يقوى على التكبّر. ذلك أن أولئك الذين يقيمون في الحضيض لا يُبدون إلاّ مشاعر الضيق والحرج، فقد كان الفقر، في الحقيقةِ عيباً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

برغم كل شيء لبث هذا كلّه خارج دائرة الأمور البديهية في نظر أمّي التي كان من شأن الغَضْب المتواصل أن يُذلّها. ولنستخدم رمزاً ولو لمرّة واحدة: فهي ما عادت تنتمي إلى الأهلين الذين لم يروا الرجلَ الأبيض بعدُ. وكانت قادرة على تصوّر حياة لا تكون مجرّد حياة منزلية مؤبّدة. كان يكفي أن يرفع أحد ما اصبعاً صغيرة لكي تنفّذ فعلاً ما يجول في رأسها من أفكار.

كانت لتفعل، كانت لتكون، كانت لترحل.
وما حدث فعلاً:

منظر طبيعي يفترضُ لوازم المظهر الانساني التي تفقد معه تدريجاً كلّ سمة انسانية. زيارات متكرّرة لأخيها راجيةً أن يؤجّل قرار فصل زوجها المدمن على الشراب من عمله، ورجاء لعميل المراقبة أن يستلهم طيبته ويتخلّى عن قراره برفع شكوى بشأن المذياع الذي لم يُصرّح عنه من قبل؛ الوعد بأن تكون على ما يليق بمواطنة صالحة بشأن سلفة البناء؛ إجراء المعاملات من مكتب إلى آخر للحصول على وثيقة تثبت أن أسرتها من سكان المقاطعة الأصليين. إفادة سنوية تثبت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن ابنها الذي أصبح طالباً في الجامعة لا يعمل وليست له موارد مالية؛ املاء استمارات من أجل تعويضات تكاليف العلاج، واستمارات للإعلانات العائلية، ولتخفيض الهبة المستحقة لرجال الدين(*) ـ وهي في الغالب طوعية، إلا أن تخفيضها أو إلغاءها يتطلبان عدداً من الوثائق الثبوتية والإجراءات بحيث أن «الموافقة» النهائية ـ وهي حقّ ـ تبدو وكأنّها أعطيت كحظوة واستثناء.

في البيت لا وجود لآلات من أي نوع. فكلّ شيء يتمّ بواسطة العمل اليدوي. أو بمجرّد أدوات هي إرث قرنٍ من الزمن انقضى وأحالها في وعي العموم إلى أدوات تذكاريّة: مطحنة البنّ، التي كانت، على نحو ما، تمثل اللعبة المفضّلة لدى الجميع، ولكن أيضاً الغسّالة المريحة، وموقد الخشب الظريف، والأواني المحبّبة المرقّعة من كلّ صوب والسطام المرعب، والعربة الأنيقة ذات الحواف، والممسحة النشيطة، والسكاكين الباهرة التي لفرط ما عالجها المجلّخون الحاذقون لم يبق من شفرتها سوى خيط مسنون، وكشتبان الخياطة المنمنم، وغاريقون الرتق الكبير المدبّب، والمكواة الضخمة التي بفضلها كان بالإمكان تبديل الملابس لأنّها كانت لا تفارق لوحة الفرن لتظلّ ساخنة، وفي الختام القطعة المختارة بامتياز، آلة الخياطة «سينجر» والتي يتمّ تشغيلها باليد والقدم؛ وفي كلّ ما ذكرنا ليس هناك سوى التعداد الذي يثير الحماسة.

(*) Denier du culte: هبة عينية يمنحها أفراد الرعية الكاثوليكية لإعالة إكليروس كنيستهم (م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلاّ أنّ طريقة مختلفة في التعداد قد تكون ذات طابع عاطفي بالطبع: أوجاع الظهر، الأيدي الملسوعة بمياه الغسيل والمجمدة ثمّ المشقّقة عند نشر الغسيل ـ تماماً كما كان الغسيل المجلّد كأنه يُكسر حين يُطوى! ـ نزيف الأنف حين تقف بعد فترة انحناء طويلة؛ نساء منهمكات بهاجس انجاز كلّ شيء وبسرعة حتّى أنهنّ، في غفلتهن، يذهبن للتسوّق وعلى تنانيرهن لطخة دماء. الشكوى لا تنتهي لمظاهر البؤس العادية والتي يتحملنها لأنّ إحداهنّ في النهاية ليست سوى امرأة. نساء يتحادثن في ما بينهن: ليس: «كيف حالك؟» بل: «هل أصبحتِ على حال أفضل؟».

أمور شائعة، ولا تدلّ على شيء. إذ لا طائل في أي جهد للتدليل أو البرهان ما دام التعارض لا يستوي إلا بين الحسنات والسيئات، أكثر سنن الحياة فساداً. «كل شيء له حسناته وله سيئاته، فماذا عسانا نفعل» فيصبح ما هو غير مقبول مقبولاً ـ سيئة ليست إلاّ إحدى الخواص الضرورية لكل حسنة.

فالحسنات لم تكن على الإجمال، سوى سيئات ناقصة: لا ضجيج ولا مسؤولية، ولا اضطرار للعمل لدى آخرين، ولا اضطرار لمغادرة المنزل كلّ يوم والابتعاد عن الأولاد، فالسيئات الحقيقية إذاً كانت تُلغيها السيئات الغائبة.

ليس في هذا، إذاً، ما يدعو إلى الرهبة. فالتخلص من هذا العبء لا يعدو كونه لعبة أثناء النـوم. ولكن برغم ذلك كانت لعبة لا نهاية لها.

فاليوم كان مثل أمس، وأمس مثل اليوم الذي سبقه. وما أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينصرم نهار كأنّه أسبوع انقضى، كأنّه سنة مقبلة واعدة. ماذا سنأكل غداً؟ هل مرّ ساعي البريد؟ ماذا فعلت طوال النهار في البيت؟

وضع صحون المائدة، رفع صحون المائدة، «هل حظي كلٌّ منكم بما يريد؟». رفع الستائر، اسدال الستائر؛ اشعال النور، اطفاء النور، «لاتدعوا اللمبة مضاءة في الحمّام»؛ طيّ الشراشف فَرْد الشراشف؛ إفراغ الأواني، ملء الأواني؛ وصل التيّار فصل التيار. «هذا كلُّ شيء لهذا اليوم».

أولى الأدوات المنزلية: المكواة الكهربائية. أعجوبة «لطالما مُنِّيَت النفس بها»؛ ارتباك، كأنّها لا تستحق الحصول على مثل هذه الأداة: «ماذا فعلت لاستحقها؟ ولكنْ من الآن فصاعداً سيُصبح الكيّ بمثابة متعة! وربّما أتاح لي استخدامها أن أحظى بمتسعٍ من الوقت لي أنا!».

خلّاط، طاهٍ كهربائي، ثلّاجة، غسّالة: والمزيد المزيد من الوقت للاهتمام بشؤون الذات. والنتيجة: المكوث بذراعين متبطلتين، جامدة، مأخوذة بدوار ما عاشته طويلاً كجوهرة البيت وحوريّته. كان ينبغي أيضاً الاقتصاد بالمشاعر فلا يُعبَّر عنها إلّا بزلّة اللسان وعندما يحدث ذلك لا بدّ من السعي للتكتم عليها. وما عادت البهجة القديمة بالعيش الممتلىء لتظهر إلّا لُماماً، كأنها ارتعاشة غامضة وخجولة تنتاب إصبع اليد الثقيلة والهادئة ولا تلبث أن تخفيها اليدُ الأخرى.

لم تتحوّل أمّي، من جهتها، وبصورةٍ نهائية، إلى شيء ممحوّ، مجرّدٍ من كلّ حضور. فشرعت تؤكّد حضورها. وإذ أدركت أنها لم تُعد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجبرةً على تبديد كيانها، راحت ترجع تدريجاً إلى ذاتها. فكفّ التهويم. وطالعت الناس بالوجه الذي كان يُشعرها بالارتياح.

كانت تقرأ الصحف، وتؤثر عليها الكُتُب التي تستطيع أن تقارن بين قصصها وبين حياتها الخاصة. كانت تقرأ الكتب التي أقرأها أنا، فالّادا، كنوت هانسوم، دوستويفسكي، مكسيم غوركي أوّلاً، ثمّ توماس فولف ووليم فولكنر. وما كانت تقوله عنها ليس جديراً بأن يُنشر، فقد كانت تحكي ببساطة عمّا أعجبها كثيراً فيها: «لكنني لست كذلك»، كانت تقولُ أحياناً، كأنّ الكاتب لا يني يصفها هي ولا أحد سواها. تقرأ كلّ كتاب وكأنّه وصفٌ لحياتها هي وبذلك تستأنف عيشها. ولأوّل مرّة تظهر تلقائية ما في ذاتها بفضل القراءة وتتعلّم كيف تتحدّث عن نفسها. وكان كلّ كتابٍ يُعينها على مزيد من الاستلهام. وهكذا استطعت تدريجاً أن أعرفها.

كانت في السابق لا تداري حنقها من ذاتها، لفرط ما كان حضورها يُربكها. ولم تلبث أن أصبحت القراءة والمحادثة أشبه بالغوص تخرجُ من غماره مصحوبةً بالإحساس الجديد بمكانتها. «إنها تعيد إليّ شبابي».

سوى أنها لم تكن تقرأ الكُتُبَ إلاّ كقصصٍ من الماضي وليس كأحلام المستقبل. كانت تجدُ فيها ما لم تره وما لن تراه قطّ. فقد عمدت من تلقائها ومنذ أمدٍ بعيد إلى استبعاد فكرة أي مستقبل تراودها. لذا لم يكن هذا الربيع الثاني في الحقيقة سوى تجميل لما سبق لها أن عاشته.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يعلّمها الأدب أن تبدأ، مذ ذاك، بالانشغال بأمورها الخاصة بل أظهر لها أنّ مثل هذا الانشغال قد فات أوانه. كان في وسعها أن تؤدي دوراً ما. وبرغم كل شيء كان في مقدورها أن تخصّص نفسها بقليل من الاهتمام وتمنح نفسها ترف تناول فنجان قهوة في مقصف النزل من حين لآخر عندما تذهب للتسوّق دون أن تبالي بما قد يراود الناس من ظنون.

أصبحت متسامحة حيال زوجها، وتسمح له بالتعبير عمّا يعتمل في نفسه ولا تقاطعه عند أوّل عبارة يتفوّه بها بتلك الاشارة الحازمة من رأسها فتصدّه ويعصى عليه الكلام. كانت تشفق دائماً لحاله فيُسقط في يدها ـ حتّى في الأوقات التي لا يشعرُ الآخر فيها بالألم، كأن يكون، ولو في المخيّلة، على مقربةٍ من شيءٍ ما بليغ الدلالة على هذا اليأس الذي تُبتلى به ذات النفس: حوضٌ من الخزف المتشقّق، سخان كهربائي صغير وقد اسودّ صفيحُه بسبب الحليب الذي لا يني يندلق عليه.

عندما يغيب أحد افراد الأسرة، لا تستطيع أن تتخيّله في غيابه إلاّ من خلال صور العزلة. فهو، بعيداً عنها وعن البيت، لا يمكن إلاّ أن يكون مستوحداً. البرد، الجوع، والآفات الأخرى: فلا بدّ أن تكون المسبّبة لكل هذا. وكانت تشمل زوجها المُحْتَقَر أيضاً بمشاعر الذنْب التي تنتابها وتقلق صادقةً بشأنه حين يكون عليه أن يتدبّر أموره بنفسه. وحتّى عندما تضطر للاستشفاء، كما حدث لها مراراً، ليوم واحد، للاطمئنان إلى أنها ليست مصابة بالسرطان، كانت تشعر بتأنيب الضمير لعلمها أنّ زوجها في المنزل لا يتناول وجبات طعام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ساخنة.

ولم يكن تعاطفها هذا مع الآخرين إذ يبتعدون عنها ليجعلها تشعر، في عزلتها، بأنّها وحيدة، بل مجرّد شعور خاطف بأنّها مخذولة حين يعود للشبّث بها. نفورٌ لا طاقة لها على كتمانه إزاء بنطاله المتهدّل وركبتيه الخائرتين. «أودّ لو أستطيع الاعجاب بكائن بشري». وبأية حال، كان مجرّداً من المعنى أن تكون مجبرةً دائماً على احتقار أحد ما.

ما كان يُناديها، ولو بدعوةٍ لبقة، إلاّ وقابلت طلبه بتضجّر ظاهر، لم يلبث أن استحال مع مرّ السنين إلى حركة متثاقلة للنهوض، أو إلى نظرةٍ ترمقه بلُطفٍ وقد رفعتها عما تنكبّ على انجازه في تلك الأثناء، وكلّ هذا ما كان إلاّ ليضاعف من تصاغر الزوج. كانت تصفه دائماً بالجبان. وغالباً ما كان يُستدرج إلى هفوة سؤالها عن الأسباب التي تدفعها إلى النفور منه ـ وبالطبع كانت تجيبه دائماً: «ماذا تقصد بقولك هذا؟» ولم يكن جوابها ليردعه فيلحّ عليها بالسؤال عمّا إذا كان مُنفّراً بالفعل فكانت تلاطفه ليطمئن وما كان لطفها هذا إلا ليعمّق جرح كبريائه قليلاً. لم تكن تأبه لمعنى أن يشيخا معاً، وما يدعوها في ذلك إلى بعض الطمأنينة في الظاهر هو أنّه أقلع عن عادة ضربها وسعيه الدائم لتحقيرها.

لقد أورثـه عمله الذي يقتضي منه أعمال سُخرة منهكة لا طائل فيها، مظهر الرجل المريض، قليل الحيلة. كان لا يستفيق من أحلام يقظته إلاّ للإمعان في عزلته المطبقة، وما كانت تقابل هذا الغياب إلاّ بالغياب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تفرّق بينهما الحياة. كما لم يكونا معاً قط. هذه العبارة في رسالة: «لقد أصبح زوجي أكثر هدوءًا». وهي أيضاً كانت أكثر هدوءًا بقربه، وقد اغترّتها فكرةُ أنّها ستبقى اللغز الذي سيصرف عمره دون أن يدرك معناه.

كانت أيضاً قد أصبحت تولي السياسة اهتمامها، وكفّت عن الاقتراع لصالح حزب شقيقها، الذي كان زوجها ـ وهو أجير لدى هذا الشقيق ـ ينصحها بالاقتراع له حتّى الحين، وأصبحت تقترع لصالح الاشتراكيين؛ ومع الوقت صار زوجها يقترع هو أيضاً لصالح الاشتراكيين لحاجته الدائمة لأن تكون له سنداً. إلاّ أنها لم تكن تحسب يوماً أنّ من شأن السياسة أن تكون عوناً لها هي بالذات كفرد. وكانت تدلي بصوتها كمن يؤدي معروفاً ويقينه أنّه لا ينبغي أن ينتظر العِوض في المقابل. «فالاشتراكيون يهتمون أكثر من سواهم بقضايا العمال» ـ ولكنّها، هي نفسها، لم تكن تشعر بأنّها عاملة.

لقد كان انشغالها متزايداً بما لا يحدّ وجودها ضمن إطار الأسرة والمنزل ولم تعثر عليه في كلّ ما تلقته عن النظام الاشتراكي. ولبثت وحيدة، لا رِفقة لها سوى نفورها الجنسي المكبوت في احلامها والشراشف المشبعة برطوبة الضباب والسقف الواطىء فوق رأسها. ما كان يعينها بالفعل لا يمتّ إلى السياسة بصلة. وبديهيّ أنّ الأصل في كلّ ذلك حكمٌ خاطىء ـ ولكنْ أي حُكم؟ وأيُّ من الساسة يقدر أن يشرح لها الموقف تصويباً؟ وبأيِّ كلام؟

كان الساسة يحيون في عالم آخر. وعندما يُوجّه إليهم الكلام لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يُجيبون بل يحتكمون إلى المواقف. «فبأية حال لا يمكن الكلام جهراً على مُعظم القضايا». وشأن السياسة لا يتعدّى نطاق ما هو قابل للنقاش. أمّا الباقي فعلى المرء أن يتدبّره بنفسه أو أن يستعين بالله عليه. وعلى كلّ حال فإنّ في توسّل عون السياسي ما يثبط العزائم، وليس إلاّ من باب التملّق.

انقضى تدريجاً عهد الاشارة إليها في صيغة الغائب للمجهول». صارت «هي» فقط.

اعتادت أن تُظهِرَ خارج البيت ملامح الاعتزاز بالنفسِ وتقود السيارة المستعملة التي ابتعتها لها، ثابتة الأنظار أمامها، مُستقيمة في جلستها على المقعد الأمامي. وفي البيت أيضاً أصبحت تعطس بالقدر الأقلّ الممكن من الأصوات وتضحك متهالكة إطلاق قهقهاتها المدويّة.

خلال مراسم الدفن ذكّر أصغر أبنائها بأنّـه غالباً ما كان يترامى إليه من بعيد صوت قهقهات مدويّة في المنزل.

وعندما تخرج للتسوّق كانت تلقي التحية على فلان أو علاّنة بنبرةٍ أوضح، وغالباً ما تقصد المزيّن، وتهتمّ بتقليم أظافرها. لم يكن هذا الاعتزاز بالنفس هو ذاك المُتعمّد والذي سعت من خلاله إلى احتمال مذلاّت الحقبة المظلمة التي اعقبت الحرب ـ إذ ما عاد في وسع احد أن يُربكها، كما كانت عادتها حينذاك، لمجرد أن يرمقها بنظرة.

في البيت تكون جالسة إلى الطاولة في جلستها المستقيمة التي اعتادت عليها مؤخراً، بينما يجلس زوجها وقد أولاها ظهره وطفطفت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أطراف قميصه فوق حزامه، صامتاً، ويداه مدسوستان في جيبيه، يكتفي من وقتٍ لآخر باطلاق سُعالٍ خفيف وقبالته أصغر أبنائه مُستلقياً على الكنبة، في الزاوية، يقرأ مجلّة «ميكي» وقد دسّ أصابعه في منخريه، عندئذٍ كانت تنقر الطاولة بإصبعها حَنَقاً وترفع كفّيها بغتةً لتغطي خديها براحتيها. وفي بعض الأحيان تؤذن حركتها هذه بمغادرة الزوج مكانه فيقف عند الباب ويتنحنح لبرهة ثمّ يعود أدراجه. كانت تمكث هناك في جلستها المواربة، مُطرقةً إلى أن يطلب ابنها قطعة خبزٍ بالزبدة. فتنهض، ولكي تفعل يكون عليها أن تسند ثقلها بيديها الاثنتين إلى الطاولة.

أحد أبنائها حطّم السيّارة أثناء قيادتها دون رخصة وأوقفته الشرطة. كان يشرب مثل والده، وكان عليها مجدداً أن تبحث عنه متنقلةً بين نزل وآخر. يا له من حيوان! لم تكن تعلم ما الذي قد تقوله له، والحقيقة أنها كانت تردّد دائماً الأقوال نفسها، ولا تعرف اي كلام من شأنه أن يترك أثراً لديه. «ألا تخجل من نفسك؟ ـ بلى، كان يقول. ـ على الأقل، حاول أن تجد لك مسكناً خارج البيت. ـ بلى سأفعل» وكان لا يزال مقيماً في البيت، كأنّه قبَسٌ من ظلّ أبيه، وحطّم سيارة أخرى. فأحضرت له حقيبته ورمتها عند الباب، حملها وهاجر، فراودتها أبشَعُ التهيؤات بشأنه وكتبت له: «أمك الحزينة» وعاد على الأثر. وهكذا دواليك. كانت تشعر بأنّها اقترفت كلّ ذنوب الدنيا. وكان ذلك يكدّرها.

ودائماً كانت تطالعها الأشياء هي إيّاها ودائماً في المواضيع إيّاها! حاولت أن تصبح امرأة مُهملة إلاّ أن حركاتها اليوميّة كانت قد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اكتسبت ما يفيض عنها من الأداء الآلي. وكانت تودّ أن تستسلم للموت على هذا النحو سوى أنها كانت تخافُ الموتَ. وفضولها المفرط أيضاً. «كنتُ مُرغمةً دوماً على أن أكون قويّة، أنا التي كم وددتُ أن أكون ضعيفة».

لم تكن لها أهواء ثابتة أو هوس. كانت لا تهوى اقتناء الأشياء من أي نوع وتجميعها، كما لا تهوى التبادل. وكفّت عن إدمانها حلَّ الكلمات المتقاطعة، كما أنها أقلعت منذ أمدٍ بعيد عن ترتيب الصور في الألبوم، وصارت تكتفي بحفظها جانباً.

ما شاركت قطّ في الحياة العامّة، بل كانت تكتفي بالتبرّع بدمها، مرّة كلّ عام، فتعدو وعلى معطفها شارة المتبرّعين بدمائهم. وذات يوم أجرت الاذاعة لقاءً معها إذ اتفّق حينذاك أنها كانت المتبرعة المئة الف واستحقت على ذلك جُملةً من الهدايا.

كانت تشارك أحياناً في مباراةٍ في لعبة البولينغ في أحد مراكز التسلية الجديدة. وكانت تكتم قهقهةً في حنجرتها حين تصيب كرتها الأوتاد جميعها وينطلق جرسُ احقاق الهدف.

وذات يوم أهدى أقرباءٌ من برلين الشرقية أفراد الأسرة معزوفة «هلّلويا» لهندل خلال برنامج ما يطلبه المستمعون الاذاعي المخصص للموسيقى الكلاسيكية.

كانت توجس من فصل الشتاء، عندما يجتمع أفراد الأسرة في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حجرة واحدة. ما من أحدٍ كان يأتي للاطمئنان عليها. وما أن تسمع جلبةً تقترب منها ترفع عينيها، وتجد أنه ليس سوى زوجها: «آه، هذا أنت».

انتابتها أوجاع الصداع النصفي الحادة، وتقيّأت الاقراص المسكّنة وسرعان ما فقدت التحاميل مفعولها عليها. كان الطنين يتعاظم في رأسها حتّى أنها أصبحت لا تجرؤ على لمسه إلاّ بطرف أصابعها. وكان الطبيب يُعالجها بحقنةٍ اسبوعيّة تخدّرها لبعض الوقت. ثمّ فقدت الحقن هي أيضاً مفعولها. وقال الطبيب إنه يتعينّ عليها أن تبقي رأسها دافئاً. وهكذا أصبحت تتجوّل في الأنحاء وقد لفّت رأسها بوشاح. وبرغم كافة الأقراص المنوّمة كانت تستيقظ في معظم الأحيان بعد منتصف الليل بقليل وتغطي وجهها بالوسادة، وتترك ساعات الانتظار الطويلة حتّى بزوغ الفجر أثرها الواضح خلال النهار، فلا تفارقها الرعشة لحظة واحدة. وكانت أوجاعها تلك تُخيّل لها رؤية أشباح.

كان زوجها قد نُقل إلى عيادة خاصة لعلاج السلّ الرئوي. وسألها في عددٍ من الرسائل الرقيقة أن تسمح له مجدّداً بمشاركتها سريرها. فأجابته بكلماتٍ لطيفة.

كان الطبيب يجهل تماماً علّة مرضها: أهي الاضطرابات النسوية المعتادة؟ أهي سنّ اليأس؟

كانت في تردّي حالتها المُنهكة لا تمدّ يداً إلا وتُخطيء الذي تقصد

إليه، كانت يداها وكأنهما تنزلقان عن جسمها. تستلقي بعض الوقت على كنبة المطبخ بعد الجلي إذ تكون الحجرة شديدة البرودة خلال فترة ما بعد الظهر. وكان صداعها يبلغ من الحدّة أحياناً فلا تعود تتعرّف أحداً ممن تراهم. ما عادت تريد أن ترى شيئاً. وبما أنّ الطنين لا يفارق رأسها كان ينبغي لمن يريد مخاطبتها أن يتكلّم بصوت عالٍ. وإلى ذلك كانت قد فقدت كلّ إحساس بجسمها فتصطدم بحوافّ الأثاث والأبواب وتخطىء قدمها بعض درجات السلم. كان الضحك يؤلمها فتكتفي أحياناً بأن تقطّب. قال الطبيب إنّ أحد أوتار عصب الرأس لا بد أن يكون مُعرّضاً لضغط ما. كانت لا تتكلّم إلا بصوت خفيض وبلغ الألم بها مبلغاً لا تقوى معه حتّى على الأنين. تحني رأسها جانباً وتسنده إلى كتفها لكنّ الوجع لا يفارقها.

«ما عدتُ أملك شيئاً من صفاتِ الكائن البشري».

أثناء زيارتي لها في الصيف الماضي، وجدتها ذات يوم مُستلقية على سريرها وقد اجتمعت في سيماء وجهها مقادير من الأسى فلم أجرؤ على الاقتراب منها. كما لو أنّ المشهد في حديقة حيوان، حيث بدا الحيوان متروكاً لمصيره بلا مددٍ أو عون. وكان من قبيل تعذيب النفس الخالص أن يرى المرء بأي وقاحة استدارت نحو الجهة التي يأتي منها الهواء. كلُّ شيء فيها كان مخلّعاً، محطّماً، فاغراً، مُلتهباً، والأدهى انسداد الأمعاء. وكانت ترمقني من بعيد، ونظرتها تقول إنني ربّما أكون قلبها الذي سُلخ عنها كمثل كارل روسمان، في قصّة كافكا، في عيني السائق الذي يحرص الجميع على إهانته. ولم ألبث أن غادرت الحجرة مذعوراً ووهفة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت تلك فاتحة اهتمامي الفعلي بأمّي. فقد كنتُ إلى ذلك الحين أتناسى وجودها وأكثر ما قد أبديه نحوهـا شعـور ينتابني أحياناً على عجل بالإشفاق على بلاهةِ حياتها. وفي تلك اللحظة كأنّها فرضت وجودها عليّ، وأصبحت في عينيّ حضوراً ملموساً وحيّاً من لحم ودمٍ، وصار حالها على قدرٍ من الكثافة والمباشرة بحيثُ أني غالباً ما كنتُ أنصرف إليه بجوارحي كلّها.

ومن حولها أصبح الناس يرون إليها بنظرات مختلفة: كأنّها اختيرت مثلاً يُعبّر بصدق عن حياتهم هُمْ. كانوا يبدون قلقهم ويسألون كيف ولماذا إلاّ أنّ هذا لم يكن سوى ظاهر ما يعرفونه جيّداً. وبهذا المعنى كانوا يتفهّمون حالتها.

فقدت كلّ حاسة، وما عادت تتذكّر أي شيء، فلا تتعرّف الأشياء والأدوات التي تُستخدم كلّ يوم. وعندما كان أصغر أبنائها يعود من المدرسة لا يجد سوى ورقة على الطاولة كتبت فيها أنها ذهبت في نُزهة قصيرة، وتوصيه بأن يُعدّ لنفسه طعامه أو فليذهب ليأكل عند الجيران. وكانت هذه الأوراق التي تنتزعها من مفكرة جيب تتراكم في دُرج الطاولة.

ما عادت قادرة على لعب دور مدبّرة المنزل. فقد كانت تستيقظ كلّ يوم بجسدٍ مجروح. وكانت الأشياء تسقط من يديها على الأرض، وهي نفسها كانت لتتبعها في سقوطها.

كانت الأبواب تعترض طريقها، والعفونة كأنّها تهطل عليها من الجدران.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصبحت لا تفهم شيئاً ممّا يدور على شاشة التلفزيون. ولا تكفّ عن تحريك يدها لكي لا تغفو في الأثناء.

كانت تسهو عن نفسها أحياناً خلال نزهاتها. فتطيل الجلوس عند طرف الغابة، في المكان الأبعد عن البيوت، أو عند ضفاف جَدْوَل ما قرب مَنْشرة مهجورة. لم تكن لرؤية حقول القمح أو الماء أي أثر مهدّىء ولكنّها، في الأقل، تفعل فعل المخدّر في بعض الأحيان. فبينما تختلط الرؤى والمشاعر لا تلبث أن تستحيل كلّ صورة إلى توجّس تدفعها إلى الإغضاء والالتفات إلى ناحية أخرى، ثمّ تأتي الصورة التالية لتطيل أمد التوجّس إيّاه، وهكذا تتولّد محطات سكون حيث تتيح لها عجلة العالم الخارجي الجهنميّة بعض الدّعة. ففي مثل تلك اللحظات لا تشعر بغير التعب، وتبرأ من الضجيج المدوّم، وتستغرق في ذاتها دون أن تفكر في شيء، استغراقها في تأمل المياه الجارية.

ومجدّداً كان كلّ شيء في داخلها يُعاكس العالم الخارجي، وكان في وسعها أن تتخبّط في ربقة الهلع سوى أنّها ما عادت قادرة على تمالك نفسها فنبذتها الدّعة. وينبغي أن تنهض وتغادر إلى مكان أبعد.

كانت تخبرني كيف يقبض الهلع أنفاسها أثناء السير. ولذا كانت لا تستطيع السير إلاّ ببطءٍ شديد.

كانت تمشي وتمشي وفي آخر المطاف كان عليها أن تجلس لتستريح لشدّة ما أنهكها المشي. ثمّ لا تلبث أن تنهض وتواصل سيرها.

هكذا كانت تغفل عن انقضاء الوقت ولا تنتبه في معظم الأحيان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلّا عند هبوط الليل. كانت شبه عمياء في الظلام فلا تهتدي إلى الطريق. وما أن تصل إلى البيت حتّى تقف حائرة، فتجلس على مقعدٍ قبالة الباب ولا تجرؤ على الدخول.

وعندما تعقد العزم على الدخول، كانت تفتح الباب متباطئة فتبدو الأمّ كطيفٍ جاحظ العينين.

وفي نهاراتها الطويلة أيضاً كانت تواصل طوافها على غير هدى وتختلط عليها في معظم الأحيان الأماكن والأبواب. إذ غالباً ما تجد نفسها عاجزةً عن تفسير سبب وصولها إلى هذا المكان أو ذاك أو كيف انقضى كلّ هذا الوقت. فقد فقدت كلّ إحساس بالزمان والمكان.

أصبحت راغبة عن رؤية أحد، فقد يحدث أن تقصد النزل لتجلس في مقصفه بين ركّاب حافلات السيّاح الذين لاستعجالهم لا ينظرون إلى وجهها، إذ ما عادت قادرة على التنكّر وتعرّت من كلّ قناع. كان يكفي أن يُنظر إليها لكي يُعرف كلّ شيء عن واقع حالها.

كانت تخافُ أن تفقد صوابها. فسارعت، قبل فوات الأوان، إلى تدبيج عددٍ من رسائل الوداع.

كانت الرسائل مسألة ملحّة وعاجلة كما لو أنّها أرادت أن تحفر ذاتها على الورق. وفي ذلك الوقت لم تكن الكتابة أمراً مُستغرباً أو بعيداً عنها كما هي في الواقع لكافة الذين يحيون في ظروف مماثلة، بل أصبحت نوعاً من التنفّس المستقلّ عن إرادتها. ومع ذلك كان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحديث معها قد أصبح شبه مستحيل إذ لا يجد أحدٌ ما يحدثّها به. فكلّ عبارة تذكرها بأمر مُرعب وتفقدها الهدوء الذي تنعم به. «لستُ قادرة على الكلام. فلا تجعلوني أتألم». وكانت تشيح بوجهها، وتشيح بوجهها أيضاً وأيضاً، ثمّ تخفيه عن أنظار الحاضرين. وتشعر بالحاجة لأن تغمض عينيها ويسيلُ دمعٌ مكتومٌ ونافلٌ على هذا الوجه المخفي.

قَصَدت أخصائياً في الأمراض العصبية في العاصمة. واستطاعت أن تحدّثه، فكان الطبيب المثالي لحالتها. كانت هي نفسها تَعجَبُ لقدرتها على أن تحكي له كلّ شيء. ولم تبدأ بالتذكر فعلاً إلاّ حين شرعت في الكلام. كان الطبيب يهز برأسه لكلّ عبارة تتفوّه بها ويتبين منها على الفور عارضاً في كلّ تفصيل فيصنفها في إطار منظومة يُطلق عليها اسماً ـ «الانهيار العصبي» ـ يجعلها مطمئنة. فهو يعرف ما بها، ويستطيع، على الأقل، أن يصف كافة الحالات التي تمرّ بها. لم تكن الوحيدة في بلواها. فثمة آخرون ينتظرون في ردهةِ الاستقبال.

حتّى أنّها استطاعت، خلال زيارتها التالية، أن تراقب أولئك الناس. أشار عليها الطبيب بأن تُكثر من نزهاتها في الهواء الطلق ووصف لها دواء أفلح في كسرِ الطوق الذي كان مُطبقاً على رأسها. وقال لها إنّ القيام برحلةٍ ما قد يساعدها على تبديل أفكارها. كانت تدفع الأتعاب نقداً لأنّ نظام صندوق الضمان الصحّي لا يدرج في تقديماته للمضمونين هذا النوع من الإنفاق. ولذلك كانت كلفة العلاج عاملاً إضافياً في اضطرابها العصبي.

كانت أحياناً تحاول عبثاً إيجاد الكلمة الملائمة لتعبّر عن فكرة ما.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلمة تعرف معناها العام، فهي لا تريد سوى أن يهتم بها الآخرون. وكم تأسف الآن لتلك الفترة القصيرة التي عجزت خلالها عن التعرّف إلى أحد أو عن تذكر أي شيء.

كانت تبذل ما في وسعها للإفادة من واقع أنها كانت مريضة. فأصبحت لا تفعل سوى أن تلعب دور المريضة. كأن تتظاهر بأن أفكارها مشوّشة لكي تحمي نفسها من الأفكار التي أصبحت واضحة. ذلك أنّها ترى نفسها مُرغمةً، حين يصحو رأسها، على الاعتراف بأنها حالة فريدة من نوعها فتتحصّن بالعزاء الذي يوفّره لها كونها أصبحت في عداد فئة من الفئات. أو كأن تبالغ في مظهر الشرود والسهو في الوقت الذي تكون فيه قد تذكّرت تماماً أو أدركت تماماً ما يعنيه الكلام؛ كانت تحتاج لمن يشدّ ازرها. أنتِ في حالة جيدة! أنتِ في أحسن حال! كما لو أنّ مُنتهى اللعنة التي حلّت بها إنّما مردّها إلى ما يُضنيها من تلك الفترة التي فقدت فيها ذاكرتها وأصبحت عاجزة عن التحدّث في أي شيء.

كانت لا تُطيق المزاح إذا كان يتناولها مباشرة. ولم تكن مُناكفتها بشأن وضعها لتعينها من أي وجه. فقد كانت تفسّر الكلام بحرفيّته. ولا تلبث أن تذرف دموعها الغزيرة ما إن يسعى أحدٌ ما متعمّداً للتندُّر أو إطلاق الدعابات.

في أواسط فصل الصيف، سافرت إلى يوغوسلافيا لقضاء أربعة أسابيع. في الأيام الأولى كانت تلازم غرفة الفندق المُعتمة ولا تكفّ عن تحسُّس رأسها. ولم تكن

قادرة على قراءة أي شيء، لأنّها ما إن تهمّ بذلك حتى تحول أفكارها الخاصّة بين القراءة وبينها. كانت لا تكفّ عن الدخول إلى الحمّام لتغتسل. ثمّ تجرأت على الخروج وبطبطت قليلاً في مياه البحر. فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تنعم فيها بعطلةٍ على شاطىء البحر. لقد راق لها البحر وخلال الليل كانت العواصف لا تهدأ فوجدت رفقة لساعات أرقها الطويلة. ابتاعت قبعة قشّ إتّقاءً لأشعة الشمس ثمّ باعتها قبل يوم واحد من رحيلها. وكانت تقصد مقصف الفندق كلّ بعد ظهر حيث تشرب قهوتها الاسبرسّو. كانت تكتب الرسائل والبطاقات وترسلها إلى كلّ مَنْ عرفته ولم تكن تتحدّث عن نفسها في ما تكتبه إلّا لماماً ومن بين أشياء عديدة أخرى.

استعادت حاسّة الزمان والمكان. وكانت تصغي ببعض الفضول إلى الأحاديث الدائرة حول الطاولات المجاورة، محاولةً أن تخمّن طبيعة الصِلات التي تربط بين المتحدثين.

عند المساء تكون وطأة الحرّ قد خفّت فتقصد القرى المجاورة وتتنقّل بين المنازل التي ليس لها أبواب متأمّلة ما بداخلها. كانت لا تُخفي دهشتها العفوية حيال ما تراه لأنّها لم تر من قبل مثيلاً لهذا الفقر المدقع. زال عنها الصداع. وأصبحت قادرةً على صرفِ أيّ انشغال عنها، فقد كانت تحيا لبعض الوقت خارج العالم وشجونه، وكان الضجرُ اللذيذُ صحبتها الوحيدة.

حين عادت كانت قد استعادت، منذ بعض الوقت، قدرتها على المحادثة دون أن تستدرّج إليها بسؤال. فقد كانت تروي أشياء كثيرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا تمانع في أن أصحبها في نزهاتها. وكنّا غالباً ما نقصد النزل لتناول طعـام العشاء، واعتادت أن تشرب كأس كمباري قبل الطعام. وأصبحت حركة يدها التلقائية في تحسّس رأسها مجرّد عادة ليس سببها الصداع النصفي. وحكت لي أنها صادفت في العام الماضي رجلاً حاول التحرّش بها في أحد المقاهي. «إلا أنّه كان مفرطاً في تهذيبه!» وحكت أنّها تودّ أن تذهب إلى الشمال خلال الصيف المقبل، لأنّ القيظ هناك أخفّ وطأة.

كانت تتسكّع هنا وهناك، وتجلس في الحديقة برفقة صديقاتٍ لها، تدخّن وتكشّ بيدٍ متكاسلة الزنابير المحوّمة حول قهوتها.

كان الطقسُ مشمساً وعذباً، وحُجُبُ الضباب تغشى غابات الصنوبر المترامية على التلال المجاورة طوال أوقات النهار، وفي بعض الأحيان تنقشِعُ وتشفُّ بعض دكنتها. أما هي فتنهمك بصنع المربّيات والمعقودات والمخلّلات من خضار وفواكه، مؤونة الشتاء، وتفكر في تبنّي أحد أيتام الجمعية الخيرية.

كنتُ في ذلك الوقت قد اخترت أن أحيا حياة مستقلّة عنهم. فعدتُ إلى ألمانيا في أواسط شهر آب/ أغسطس تاركاً إيّاها لحالها. وخلال الأشهر التي أعقبت ذلك كنتُ منكباً على كتابة قصّة وكانت أمي تكتب إلي من حين إلى آخر.

«أشعر أحياناً بأن الأشياء تختلط عليّ، وبأنّ لا قدرة لي على احتمال بعض النهارات».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«الجوّ هنا كئيب وبارد وعند الصباح يكون الضباب كثيفاً. أغفو لساعات طويلة وعندما أغادر الفراش ولا أشعر بأي رغبة في الانصراف إلى أي عمل. كما أصبحت مسألة تبني ولد غير واردة على الإطلاق. فزوجي مُصاب بالسلّ ولذلك سيرفضون طلبنا».

«لا تلوحُ بارقةُ غبطةٍ إلاّ ويطويها حجاب، أحِسُّني وحيدةً لا رفقة لي سوى الأفكار المحبطة. كم كنتُ أودّ أن أكتب عن أشياء أكثر جمالاً ولكنّي لا اعثر على أثرٍ منها. أمضى زوجي خمسة أيّام هنا، ولم يكن لدينا ما نتحدّث عنه. فما أن أبادر إلى حديثٍ حتّى أدرك أنّه لا يفهم شيئاً مما أقول، لذلك أؤثر أن ألزم الصمت. ومع ذلك استطعتُ أن أغتبط قليلاً لرؤيته ـ ولكنْ حين يُصبح هنا، لا أعود قادرة على الالتفات نحوه بنظرة. من واجبي أنا بالطبع أن أهتدي إلى وسيلةٍ تخفّف من وطأة هذا الموقف، وهذا ما لا أكفّ عن السعي إليه، غير أني لا أجدُ حلاًّ مقبولاً. نصيحتي لك أن تقرأ هذه الخربشات وأن تنسى ما جاء فيها على الفور».

«لا أقوى على البقاء في البيت، لذلك اتسكّع في الجوار على غير هدى أو قصد. ففي هذه الآونة بتُّ استيقظ في ساعة مبكرة قليلاً، وساعة نهوضي من الفراش هي أصعب ما أعانيه، إذ أجدني مُرغمة على الإتيـان بأي شيء لكي لا أعود إلى الفراش مجدداً. اصبحتُ لا أعرف كيف أُشْغِل نفسي أو كيف أستغلّ الوقت. ثمة عزلة هائلة في داخلي، ولا رغبة لي في أن أخاطب أحداً من الناس. وفي معظم الأحيان أشعر برغبة في تناول كأس عند المساء ولكنْ يتوجّب علي أن لا أفعل لأن الشراب يُبطل مفعول الدواء. أمس ذهبتُ إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلاجنفورت، فتلكأتُ وتسكعتُ هناك سحابة نهاري، وعند المساء كدتُ أخطىء موعد انطلاق آخر الحافلات».

في شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر توقفت عن الكتابة تماماً. كانت تُلمح في الشارع، أيامَ الصحو في الخريف، وهي تغالبُ مشيتها المتثاقلة؛ وتجد دائماً عندئذٍ مَنْ يحثّها على الاسراع قليلاً. كانت تسألُ كلَّ من تصادفه ممّن عرفتهم أن يرافقها إلى النزل لتناول فنجان قهوة. كما كانت تتلقى دعوات كثيرة للمشاركة في نزهات يوم الأحد فتقبل الدعوات دون تردد. وتنضمّ إلى حلقات المحتفلين خلال المهرجان السنوي، بل وترافق بعض الصحب لمشاهدة مباريات كرة القدم. وكانت تقف هناك، ساهيةً بين المتفرّجين إذ يلتهبون حماسةً وشغفاً، تكاد لا تنبس ببنت شفة. ولكنْ حين توقّف المستشار الفيدرالي، خلال جولةٍ انتخابيّة، في البلدة وراح يوزّع القرنفل على مستقبليه، دنت منه بثبات وطلبت قرنفلة لها هي أيضاً: «ألا تعطيني واحدة؟ - أرجو المعذرة يا سيدتي العزيزة!».

في بداية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر استأنفت كتابة الرسائل. «لستُ مثابرة كما ينبغي أن أكون لكي استنفد ما يستغرقُ أفكاري، ذلك أن رأسي يؤلمني. أشعر بارتجاجات عنيفة وبصفير حاد هاهنا داخل رأسي حتّى أني لا أطيق سماع جَلَبةٍ أخرى».

«أكلّم نفسي إذ أصبحتُ لا أملك ما أحدّثُ به الآخرين. وأحياناً يتكوّن لديّ انطباعٌ بأنني آلة. لدي رغبة في الذهاب إلى أمكنة كثيرة مهما بعُدَت، ولكني أخشى ما أن يحلّ الظلام من أن أضلّ طريق العودة. عند الصباح يكون الضباب كثيفاً والأرجاء ساكنة. كلّ يوم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقوم بالأعمال إيّاها وعند الصباح تطالعني الفوضى المعتادة. إنها حلقة مفرغة لا نجاة منها. كم أودّ لو أموت. وغالباً ما تراودني الرغبة، أثناء سيري في الشارع، في أن أرمي بنفسي أمام سيارة مُسرعة. ولكنّ إن فعلت أتكون النتيجة المرجوة مضمونة مئة بالمئة؟

أمس شاهـدت حَلَقة لدستويفسكي أذاعها التلفزيون بعنوان: «الرقيقة»، وكانت النتيجة أنني أمضيت الليل في مكابدة الرؤى الرهيبة التي تراءت لي، لم تكن مجرّد أحلام، كنت أراها بالفعل؛ رجال يتنزهون عراةً ولهم بَدَلَ الاعضاء التناسلية أنابيب. زوجي يعود إلى البيت في أوّل كانون الأول/ ديسمبر. وكلُّ يوم يُدنيني من هذا التاريخ يُضاعفُ قلقي، فأنا أكاد لا أتخيّل كيف يمكن العيش معه مجدّداً. كلُّ واحدٍ منا يولي أنظاره شطر ناحية مختلفة، وتشتدّ العزلة أكثر فأكثر. أشعر ببردٍ قارس وسأحاول أن أتسكع قليلاً في الأرجاء».

غالباً ما كانت تنعزل في البيت. وعندما يأتي الآخرون، كعادتهم، للشكوى والتبرّم أمامها كانت تصدّهم وتقاطع كلامهم. كانت بالغة القسوة حيال الجميع وتعاملهم باحتقار إذ تعاجلهم بضحكة مقتضبة وهازئة. أصبح الآخرون مجرّد أطفالٍ لا ينوبها منهم إلاّ الضيق والانزعاج، وربما كانوا، في بعض الأحيان، يستثيرون عاطفةً عابرةً لا أكثر.

كانت قد أصبحت امرأةً مشاكسة صعبة المراس. إذ يحدث أن تطرد أحد زوّارها دون حرج، وما كان محدثّها لينجو، بأية حال، من إحساسه بالخبث في مجلسها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصبح وجهها فاقداً لأي ملمح أو تعبير أمام عدسة المصوّر. كانت تقطّب «عمداً وتنفرج شفتاها عن ابتسامةٍ بين خدّيها المجعدّين إلا أنّ عينيها تنظران بحدقتين خفيضتين، يغشاهما حزنٌ لا شفاءَ منه.

بات مجرّد العيش أشبه بالتعذيب.

ولكنَّ الموت أيضاً كان يُروِّعها.

«عليكِ بالنزهات الطويلة في الغابة» (طبيب النفوس).

«ولكنّ الغابة مُعتمةٌ!» يقولُ هازئاً طبيب «البهائم» الذي كانت تسرّ إليه أحياناً.

كان الضبابُ كثيفاً لا ينقشعُ لا ليلاً ولا نهاراً. فتحاول أن تطفىء الأنوار عند الظهر، ولكنّها لا تلبث أن تضيئها من جديد. إلى أي جهةٍ تسرّحُ أنظارها؟ تشبك ساعديها وتمسك كتفيها بيديها. ومن حين إلى آخر تترامى إليها أصوات مناشير آلية، صياحُ ديكٍ حَسِبَ، سحابة نهاره، أنّ الفجرَ أذِن بالبزوغ فما زال يصيحُ حتّى ساعات ما بعد الظهيرة، ـ ثمّ لا تلبث أن تنطلق صفارةُ انتهاء دوام العمل.

خلال الليل يدنو الضبابُ ملتفّاً على النوافذ. وكانت تسمع، بفواصل زمنية غير منتظمة، القطرة التي تسيلُ، مجدداً، على زجاج النافذة. وطوال الليل، لا يتوقف فراشها الكهربائي عن إشاعة الدفء تحت الشرشف. وعند الصباح تذوي نيران الفرن مراراً: «لن أكون قادرة على تمالكِ نفسي بعد الآن». أصبحت عاجزة عن إغماض عينيها. فقد حلّ في وعيها «الفراغ الكبير» (فرانتز غريلباتزر).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(من الآن فصاعداً، سأحرص على أن لا تغالي القصة في رواية نفسها بنفسها).

كتبت رسائل وداع إلى كافة أقربائها. ولم تكن تدرك ماذا تفعل وحسب بل كانت تدرك أيضاً أنّ لا شيء آخر لديها تفعله. «لن تفهم، كتبت تقول لزوجها، ولكنّ مسألة الحياة ما عادت في الحسبان». ووجّهت إلى رسالة بالبريد المضمون والعاجل أرفقتها بنسخة عن وصيّتها. «لقد شرعت في الكتابة مراراً ولكنّ الكتابة لم تمدّني بأي عزاء أو راحة». وكانت لا تكتفي بتدوين التاريخ في ذيل رسائلها، على جاري العادة المتّبعة، بل كانت تضيف إليه بيان اليوم: الخميس ١٨/١١/٧١.

في اليوم التالي استقلّت الحافلة إلى عاصمة المقاطعة حيث استطاعت الحصول على نحو مئة قرص من الأقراص المنوّمة مستعينة بالوصفة الطبيّة القابلة للتجديد التي كتبها لها طبيب العائلة. كان الطقس صحواً ومع ذلك ابتاعت أيضاً مظلّة حمراء ذات مقبضٍ ملتوٍ جميل.

عند العصر استقلّت في رحلة عودتها حافلةً شبه خالية من الركّاب. واستطاع من كان هناك أن يراها للمرة الأخيرة. عادت إلى البلدة وتناولت طعام العشاء في البيت المجاور حيث تسكن ابنتها. لا شيء غير معتاد: «حتى أننا تبادلنا المزاح».

عندما أصبحت في دارها جلست قبالة التلفزيون وبجانبها ابنها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأصغر. وشاهدا حلقة من مسلسل «عندما الأب والإبن».

أرسلت الصغير إلى سريره ومكثت جالسةً قبالة التلفزيون المضاء. وأمس بالذات كانت قصدت المزيّن وقلّمت أظافرها. أطفأت التلفزيون، ودخلت إلى غرفتها حيث علّقت تايورها البنّي في الخزانة. ابتلعت كلّ الأقراص المنوّمة بعد أن أضافت إليها مزيجاً من الحبوب المضادة للانهيار العصبي. لبست سرولتها الخاصة بأيام الحيض ووضعت فيها عدداً من الفوط الصحيّة، ثمّ لَبست فوقها سرولتين أخريين، وعقدت منديلاً حول ذقنها، واستلقت على الفراش المُسخّن دون أن توصله بالكهرباء، وقد ارتدت قميص نوم يُغطي ساقيها حتى القدمين. تمدّدت بطولها ووضعت يداً فوق يد. كانت كتبت لي في الرسالة التي لم تحتوِ، باستثناء ذلك، سوى إرشادات محدّدة حول مراسم دفنها، لتخبرني في الخاتمة بأنها كانت هادئة ومغتبطة لأنها سترقد أخيراً في سلام. غير أنني واثق من أن قولها هذا يُجافي الحقيقة.

مساء اليوم التالي بلغني نبأ انتحارها، فعُدتُ على متن طائرة إلى النمسا. كان ركّاب الطائرة قلّة، والرحلة عاديّة ومريحة، السماء صافية، خالية من الضباب وأنوار المدن تتعاقبُ في الأسفل. كنتُ جالساً أقرأ الصحيفة وأحتسي كوباً من الجعة وبين الحين والحين أنظرُ عبر النافذة الصغيرة، كنتُ أسعى للتلاشي مُستغرقاً في أحاسيس الدّعة والاسترخاء اللاشخصيّة. بلى، كنت أقولُ في سرّي مراراً، وفي سرّي كنتُ أردّد بشيء من التوجّس كلّ فكرة من أفكاري: **هذا ما كان إذاً. هذا ما كان إذاً. هذا ما كان إذاً. حسن جداً. حسن جداً. حسنٌ جداً**. ومكثت طوال الرحلة يعتريني الكبرياء لفكرة، أنها ماتت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منتحرة. ثمّ بدأت الطائرة هبوطها، واتسعت الأضواء تدريجاً. وما أن هبطنا حتّى دفعتني غبطةٌ لا قوامَ لها وما استطعت لردّها سبيلاً، إلى التجوال على غير هدى في المطار الواسع والمقفر. وخلال رحلتي في القطار، صباح اليوم التالي، أصغيت إلى امرأة تتحدّث، كانت تُعطي دروساً في الغناء لجوقة المنشدين الصغار في فيينا. كانت تشرح لرفيق رحلتها أنّ المنشدين الصغار يظلّون، حتّى بعد بلوغهم سنّ الرشد، غير قادرين على مواصلة حياتهم باستقلالية تامة. وهي أيضاً لها إبن من أفراد الجوقة. وخلال جولة غناء على بلدان أميركا الجنوبية كان ابنها الوحيد بين رفاقه الذي يحمل مالاً كمصروف جيب، حتّى أنّه عاد وما زال في جيبه بقيّة منه. فهو، على الأقلّ، صبيّ واعدٌ وقد يصبح شخصيّة معقولة.

جاء من يصحبني بالسيارة عند باب المحطّة. وكان الثلجُ قد تساقط طوال الليل وانقشعت الغيوم، وكانت الشمس متوهّجة والبردُ شديداً وضبابُ الملّاح اللامع يُخيّم على الأرجاء. أيُّ تناقض بين هذا المنظر الذي جمّله التمدّن وهذا الطقس الذي يجعل المنظر جزءاً من الفضاء الأزرق الجامد فوقه حتّى يعجز واحدنا عن تخيّل أي اضطراب ممكن، وبين أن يتقدّم واحدنا وسط كلّ هذا في اتجاه دار الميت حيث ربّما بدأت العفونة تنخر الجثة! لم اعثر في الطريق حتّى وصلتُ، على نقطة استدلال أو نذير، فطالعني الجثمانُ الميتُ في الغرفة الباردة على حين غرّة.

كان عددٌ من نساءِ الناحية يحتلُّ مقاعِدَ متلاصقة رتّبت في صفوف؛ كنّ يحتسين النبيذ الذي يُقدم إليهن. وأيقنت أن منظر الميتة جعلهنّ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينصرفن إلى التفكير في أنفسهنّ.

صبيحة يوم الدفن مكثتُ وحيداً في الغرفة لبعض الوقت بقرب الجثمان. وفجأة تطابقت مشاعري الشخصيّة والحميمة مع ما يقتضيه العرفُ الشائع في تقليد السهر على جثمان الميت. فحتى هذا الجسد الميت بدا لي في حالةٍ من التخلّي التام وبدا متلهفاً للحبّ. ثمّ عاودني الإحساس بالضجر ورحت أتأمّل ساعة الحائط. كان في نيّتي أن أمكث بقربها ساعةً على الأقلّ. ورأيتُ أن التجاعيد تغضّنُ بشرتها تحت العينين وما زالت تملأ وجهها، هنا وهناك، قطرات الماء المُبارك الذي رُشَّ عليها. كان بطنها مُنتفخاً قليلاً بسبب الأقراص. ورحتُ أقيسُ بعينيّ مستوى اليدين المضمومتين إلى صدرها بنقطة ثابتة بعيدة لأرى إذا كانت لا تتنفّس برغم كلّ شيء. لم يبق أثرٌ للأخدود الصغير بين الشفة العليا والأنف، وأصبح الوجهُ مُفرطاً في تلبسه ملامح الذكورة. وكنتُ أحياناً، لفرط ما أطيل التأمّل فيها، لا أقوى على متابعةِ سيل أفكاري. ثمّ غلبني السأم إذ كنتُ على مقربة من الجثمان وأفكاري في مكانٍ آخر. وعلى الرغم من ذلك لم أغادر عندما أنقضت الساعة بل مكثتُ بجوارها في تلك الغرفة لمدّة أطول.

جاؤوا لالتقاط صور لها. وتملكتهم الحيرة في اختيار زاوية التصوير المُثلى لالتقاط صور جميلة. «الصورة الجانبية الأجمل لوجه المرأة الميتة».

جاءت شعائر الدفن لتجرّد المرأة الميتة، وإلى الأبد، من أي طابع شخصي وحميم، الأمر الذي لاقاه الجميع بارتياح عميق. تبعنا الموكب الجنائزي تحت الثلج المتساقط بغزارة. واقتصر الأمر على إضافة اسمها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى عبارات التأبين الدينية المعتادة: «شقيقتنا في الله...». قطرات من الشمع الذائب على المعاطف تُنزَع فيما بعد بواسطة المكواة.

كان الثلج يتساقطُ غزيراً فلا يألفه السائرون في الموكب ولا تكفّ أنظارهم عن تفحّص السماء استطلاعاً لبشائر صحو. وانطفأت الشموعُ الواحدة تلو الأخرى ولم يبادر أحدٌ إلى إشعالها مجدّداً. وراودتني القناعة الشائعة بأنّ غالباً ما يُصابُ المرء أثناء مراسم الدفن بالعلّة التي ستودي به.

ووراء حائط المقبرة مباشرةً تبدأ أطراف الغابة المترامية. غابة صنوبر تغطي سفوح هضبةٍ وعرة المسالك. كانت الأشجار فيها متلاصقة متشابكة الأغصان حتّى تكاد عين الناظر إليها لا ترى سوى فنود السُربةِ الخلفية الشاهقة، ثمّ تعاقب الذروات تليها الذروات الأبعد. كانت الريحُ لا تني غائرةً خَلَل نديفات الثلج، غير أنّ الأشجار تنتصبُ لا يعتورها حراك. وما أن سرّحت أنظاري بعيداً عن القبر الذي يُسارعُ المعزّون إلى الابتعاد عنه، في اتجاه الأشجار الساكنة حتى بدت لي الطبيعة، وللمرّة الأولى ربّما، جائرة وبلا رحمة بالفعل. كانت الوقائع هي الوقائع! والغابةُ تُعبّر من تلقائها. فليس ثمة ما يُعتدّ به سوى تلك القمم المتعالية لأشجار لا تُحصى. وقبالتها جمهرة عارضة لأخيلةٍ لا تني تغادر المشهد. شعرتُ بالمهانة وبأنّ الأشياء تتخلّى عنّي. وراودتني بغتةً تلك الرغبة الملحّة المعوقة في أن أكتب شيئاً عن أمّي.

فيما بعد، وقد عدتُ إلى بيت أمّي وجدتني أصعد الدَرَج مساءً. وفجأة تجاوزت عدّة درجات قفزاً، وفي الوقت نفسه كنتُ أكتم نقيقاً

صبيانيّاً وبصوتٍ غريب حتى خِلتني أصدر الأصوات من بطني. فأسرعت في ارتقاء الدرجات الأخيرة. وفي الأعلى رحتُ أقرع صدري بعنف بجماع قبضتي حتى أحسست بالاختناق. ثمّ هبطت الدرج على مهل يحدوني اليقين مما أجزاني أن أكون رجلاً يُضمر سرّاً وحيداً.

ليس صحيحاً أنّ الكتابة كانت عوناً لي. فطوال الأسابيع التي انهمكت خلالها في تدوين هذه القصّة، كانت القصّة، هي أيضاً، لا تكفّ عن مضاعفة انهماكي. لم تكن الكتابة، كما ظننتُ في البداية، مجرّد تذكار لحقبة مُنصرمة من حياتي، إذ لم أفعل سوى الإصرار على تضمين العبارات مثل هذا الموقف فتغترّني المسافة التي أضعها بين العبارة وبيني فلا تكون إلّا اعتباطاً. وما زلتُ حتّى اليوم أستيقظ مذعوراً في الليل أحياناً كما لو أنني منبوذٌ من النوم باندفاعةٍ باطنيّة خفيفة، فأحبس أنفاسي إذ يتملكني الاحساس بأنّ الذعر يستحجرني وئيداً. ولفرطِ ما يكون الهواء راكداً في الظلالِ الغاشية تبدو الأشياء جميعها في حالة فقدان توازن ومُقتلعة من ركن قوامها. وقد تهوّم قليلاً دون جلبة، فاقدةً مركز الثقل، ثمّ لا تلبث أن تتساقط عليّ من كلّ حدبٍ وصوب وتقبض على أنفاسي. في مثل أوقات هذا القلق المفاجىء يُصبح المرءُ مُغنطاً كهيكل متعفّن، ولا يشبه الأمر هنا أن يكون كما في الرغبة المحايدة حيثُ لكافةِ المشاعر حريّتها في التضافر، بل ان الهلع هذه المرّة، الهلع المحايد والموضوعي ينقضّ عليه كالطاغية.

طبعاً ليس الوصفُ إلّا واحداً من تجلّيات الذكرى. إلّا أنّ هذا لا يُلغي شيئاً ممّا تحتمله المرّات التالية، فهو لا يستمدّ سحره القليل إلّا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من حالات القلق وبفضل سعيه للاقتراب منها عبر أكثر الصياغات مواءمةً لها، فالوصف يولّد نزوعاً إلى التذكر انطلاقاً من النزوعِ إلى الذعر.

خلال أوقات النهار غالباً ما يتملكني الاحساس بأنني مُراقب. فأفتح الأبواب وأحاول أن أتبينّ حقيقة الأمر. إذ بدأت أحسّ بأنّ كلّ ضجّة طارئة هي بمثابة عدوان علي.

ولكنْ أحياناً كنتُ أشعرُ، أثناء انكبابي على تدوين هذه القصّة، بالسأم من كلِّ ما تضمّنته من صراحة وصدق، وراودتني الرغبة في أن أكتب، قريباً جداً، شيئاً ما يُتيح لي أن أكذب قليلاً وأن أتنكر بلبوس سواي، أن أكتب مثلاً نصّاً مسرحياً.

ذات يوم، انزلق السكين من بين يدي فيما كنتُ أقطع الخبز، وسرعان ما عاودتني ذكراها وهي تقطع الخبز، إلى قطع صغيرة لتضعه في حليب الأولاد الساخن عند الصباح.

وكثيراً ما كانت تتوقّف إذ تمرُّ على عجلٍ أمام الأولاد، وتمسح باصبعها المبلّلة باللعابِ أنوفهم المخاطة أو آذانهم المتسخة. وكنت إذذاك انتفضُ مذعوراً لشدة نفوري من رائحة اللعاب.

ذات يوم كنّا في نزهة إلى الجبل برفقة آخرين وأرادت أن تنتحي بعيداً عنهم لقضاء حاجة. فأحسست بالخجل لما تفعله وبكيت، فرضخت لبكائي وامسكتْ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في المستشفى كانت تجلس دائماً برفقة آخرين كُثُرٍ في الردهات الواسعة. بلى، ما زالت مثل هذه الأمكنة موجودة! وهناك، ذات يوم صافحتني وشدّت طويلاً على يدي.

عندما ينالُ كلٌّ منا طعامه ويأكل، كانت تبتلع حشوات الخبز المتبقيّة رغبةً منها في إضحاكنا.

(ليست هذه، بالطبع، سوى دعابات. ولكن أي توصيف علمي لا يكون في هذا السياق من قبيل المداعبة. فالعبارات قاطبةً مفرطةٌ في الرقّة).

زجاجة المشروب الاصفر في خزانة المطبخ!.

الذكرى الأليمة لحركتها اليوميّة، وخاصّة في المطبخ.

كانت في ثورة غضبها لا تضرب الأولاد، بل قد يحدث لها أن تمخّط أحدهم بعنف.

قَلَقٌ مُميت حين يستيقظ أحدنا في الليل ويرى النور ساطعاً في الممشى.

ذات يوم، لسنواتٍ عدّة خلت، أردت أن أصوّر فيلم مغامرات بمشاركة كل أفراد أسرتي، على أن لا يكون لهذا الفيلم أي صلّة بحياتهم الفعلية.

في صغرها كانت تمشي في نومها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الفترة الأولى التي أعقبت موتها، كان اليومُ الموافق لتاريخ موتها من أيام الأسبوع، يبعثُ فيَّ كلَّ عذاباتها الحيّة. كانت الشمس على وشك الغروب ومعها يفشو الألم ليلة الجمعة. أنوار شوارع البلدة صفراء شاحبة خلَل الضباب المسائي. ثلج مُتسخ وروائح المجاري. ذراعان مشبوكتان قبالة التلفزيون. الجلبة الأخيرة، صوت «السيفون» مرتين على التوالي.

لطالما راودني الشعورُ، أثناء كتابتي هذه القصة، بأنّه ربّما كانت الموسيقى أقرب إلى مطابقة وقائعها. . Sweet New England

«ربّما وُجدتْ أشكالٌ من اليأس، جديدة، وغير متوقّعة، لم نعرفها بعدُ»، يقولُ أحد مدرّسي القرى في فيلم بوليسي من سلسلة أفلام «المفتّش».

في كافة عُلب الموسيقى الآلية في المنطقة، هناك أسطوانة عنوانها: «بولكا السأم».

بشائر الربيع، مستنقعات وحل، رياح ساخنة وأشجار تساقطت عنها الثلوج، بعيداً جداً عن الآلة الكاتبة.

«لقد حملت سرّها معها إلى القبر!».

كان في مُستطاعها أن يكون لها وجهٌ آخر في الحلم، إلاّ أنّ هذا الوجه كان قد أصبح مُستهلكاً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت إمرأة طيّبة.

هذه المرّة أمرٌ مريح جداً: حلمتُ أنني لا أبصر سوى الأشياء التي يسبِّب مرآها لِي آلاماً مُبرحة. وفجأة جاء شخصٌ ما وجرّدها، ببساطة، من كلِّ ما يسبّب ألماً فيها، كما يُبطَلُ هجومٌ فَقَدَ هدفه. والمقارنة أيضاً كانت محلومة.

ذات يوم من أيام الصيف كنت جالساً في غرفة جدّي أنظرُ من النافذة. لم يكن هناك ما يلفت الأنظار فعلاً: طريق تخترق البلدة وتفضي إلى مبنى مطلي بالأصفر الغامق («شونبرون»)، هو مبنى نزل قديم، ومن هناك تُصبحُ ملتوية. كان ذلك بعد ظهر يوم أحد، وكانت الطريق مقفرة. فانتابتني فجأة أحاسيس قويّة تنبئني بأنّ صاحب هذه الغرفة سيفارق الحياة قريباً. إلاّ أنّ ما كان يُلطّف من حدة هذه الأحاسيس هو يقيني بأنّ هذه الميتةَ ستكون مِيتة طبيعية.

يستجيب الهلع لقوانين الطبيعة. هَلَع الفراغ في الوعي. إذ يتشكل التصوّر فيدرك فجأةً أنّ ليس هناك ما يُمكن تصوّره. عندئذٍ يهوي التصوّر كما شخوص الرسوم المتحرّكة إذ تدرك فجأة أنّها، منذ البداية، إنّما تسعى في الفراغ.

فيما بعد سأكتبُ عن كلِّ هذا، على أن أكون أكثر دقّة.

كتب في كانون الثاني/ يناير -
شباط/ فبراير ١٩٧٢


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولد بيتر هاندكه في غريفن (النمسا) عام ١٩٤٢ ويحيا منذ سنوات في باريس. نال جائزة «بوخنر»، أكبر الجوائز الأدبية الألمانية على مجموعة أعماله الروائية. له «البائع الجوّال» و«قلق حارس المرمى لحظة ضربة الجزاء» و«الإمرأة العسراء» و«الرسالة القصيرة للوداع الطويل» و«ساعة اليقين» و«صيفي الألم» و«حكاية طفل» و«العود على بدء».

في ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧١، يبلغ الكاتب نبأ انتحار والدته وهي في الحادية والخمسين من العمر. وعندما يبدأ بالكتابة عن هذا الحدث، في مضيّ أسابيع قليلة، فإنّما يفعل، كما يقول في سطور الكتاب الأولى، وكأنّه «ينجز عملاً أدبيّاً». إلاّ أن قارىء هذه الصفحات لن يلبث أن يدرك أنّ النصّ ليس عملاً أدبياً عادياً. فهو لم ينطلق من «ذاته ومشاغله الخاصة» ولم يُفلح في الابتعاد عمّا يودّ قوله بالفعل. ففي «الشقاء العادي» ليس هناك ما هو «غير قابل للقول» كما تزعمُ القصّة أو الرواية. ومهما حاول هاندكه أن يُحاكي الحياة الحقّة بالكناية أو التوليف والتأليف، فهناك دائماً ما يُردّدُ في سرّه: إنها حكاية بسيطة. ولشدّة بساطتها تكاد عناصر السرد فيها تُبنى على أحوال الغائب والمجهول. فالحياة المقفرة التي يرسم النصّ معالمها ليس فيها أيّ حيّز «للتبدّل» أو «النمو»، بل لحمتها «الاستمرار» على الحال المقيمة، لذلك لا يكون الموت مأساوياً إلاّ بما هو فقدان لصورة ما، لإطار من الطيبة والامتثال وسوء الفهم. لم يكتب هاندكه هذا النصّ/ الحكاية إلاّ باقتفائه مواضع «الشعور» إذ تفارقها «الحياة» التي كانت حالّة فيها. الألم ومواضعه وكيف يبثّ الألم الأشدّ في صورة الغياب. وكأنّ المرأة التي تركت أطيافاً لها في الأرجاء لم تُصبح حقيقة (كما تكون الحياة حقيقية) إلاّ بعد أن غادرت بهدوءٍ وصمت. «الشقاء العادي» ليس مرثاة، بل ربّما كان في تجربة بيتر هاندكه المميّزة تمرين «الكتابة الحقّة» حيث تفقد اللغة كلّ حيلة وتكون الأحاسيس مجرّدة، لا بل ربّما ينبغي القول: وتكون مجرّد أحاسيس.